المفاهيم الإسلامية

في

أصول الدين والأخلاق

السيّد عامر العلوي

العلوی، السیّد عامر، ۱۹۵۹ ــ
المفاهیم الإسلامیة في أُصول الدین والأخلاق / تألیف السیّد عامر العلوي؛ إشراف السیّد عادل العلوي.
ــ قم: المؤسسة الإسلامیة العامة للتبلیغ والإرشاد، ۱٤۲۲ ق. = ۲۰۰۱ م. = ۱۳۸۰.
۱۱۲ ص.
ISBN 964 - 5915 - 18 - X (دوره) . - ISBN 964 - 5915 - 53 - 8
فهرستنویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
عربی.
کتابنامه به صورت زیرنویس.
۱. شیعه ــ اصول دین. ۲. اخلاق اسلامی. الف. علوی، عادل، ۱۹۵۵ ــ ب. مؤسسه اسلامی جهانی تبلیغ و ارشاد. ج. عنوان.
۷م ٤ع / ٥ / BP۲۱۱ ۲۹۷ / ٤۱۷۲
کتابخانهٔ ملی ایران
محل نگهداری ۹۳٥٤ ــ ۸۰م

کتاب
المفاهیم الإسلامیة في أُصول الدین والأخلاق
تألیف ـ السیّد عامر العلوي
إشراف ـ السیّد عادل العلوي

نشر ـ المؤسسة الإسلامیة العامّة للتبلیغ والإرشاد
الطبعة الأُولی ـ ۱٤۲۲ هـ = ۲۰۰۱ م
التنضید والإخراج الکومبیوتري ـ حکمت، قم
المطبعة ـ النهضة، قم
الکمیة ـ ۱۰۰۰ نسخة

شابك ۸ ـ ٥۳ ـ ٥۹۱٥ ـ ۹٦٤ ISBN 964 - 5915 - 53 - 8
ای. ای. ان. ۹۷۸۹٦٤٥۹۱٥٥۳٥ EAN 9789645915535
شابك X ـ ۱۸ ـ ٥۹۱٥ ـ ۹٦٤ (دورة ۱۰۰ جلد) 964 - 5915 - 18 - X (100 - Vol. Set)

المرحوم حجّة الإسلام السیّد عامر العلوي رحمه الله

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمّد وآله الطاهرين

مقـدّمــة
ما هي المفاهيم الإسلامية ؟

المفهوم في المصطلح المنطقي ما يقابل المصداق الخارجي، فالمفهوم يكون من المعنى، وإنّه من التصوّرات الذهنية التي تحكي عن المعلوم الخارجي والذي يسمّى بالمصداق، فزيد في الخارج مصداق وعندما يتصوّره الإنسان في الذهن يكون مفهوماً، فالمفهوم محطّه الذهن كما أنّ المصداق محلّه الخارج. والمفاهيم إنّما هي وجودات ذهنيّة، كما أنّ المصاديق وجودات خارجيّة.

وأمّا توصيف المفاهيم بالإسلامية بمعنى أنّ المفاهيم التي ننظر إليها ونتعقّلها باعتبار ما جاء حكمها وبيانها في الإسلام، وباعتبار الثقافة الإسلامية المتبلورة في مصدر الإسلام وهو القرآن الكريم والسنّة الشريفة، أي قول المـعصوم عليه السلام وهو النبيّ والإمام المعصوم وفعله وتقريره.

ويقصد من المفاهيم الإسلامية تارةً الموضوعات الأخلاقية أو العـقائدية أو الفقهية العملية التي تطرح في الإسلام، أعمّ من أن تكون فردية أو اجتماعية.

وموضوع المفاهيم الإسلامية هو المكلّف المسلم ـ الرجل أو المرأة ـ وذلك من حيث وظائفه الإسلامية في العـقائد والفـقه والأخـلاق وغـير ذلك، وعـلى الصعيدين الفردي والاجتماعي، وتارةً يقصد من المفاهيم الإسلامية خـصوص

الأخلاقيات الواردة في الإسلام، وحينئذٍ ربما يكون فرقاً بين الفقه وبين المفاهيم الإسلامية مثلاً، فإنّ موضوع الفقه هو أفعال المكلّفين باعتبار التكاليف الشرعية من الواجبات والمحرّمات، وبالتبع يبحث عن المستحبّات والمكروهات، ولكن موضوع المفاهيم الإسلامية بالمعنى الأخصّ سيكون هو صفات الإنسان أو قل الآداب والأخلاق أو السنن والمستحبّات، فيبحث أوّلاً عن المندوبات والمستحبّات وكذلك المكروهات والصفات الذميمة، ثمّ يبحث عن الواجبات تبعاً وضمناً، وربما المفاهيم الإسلامية تشمل موضوعات أوسع من الأخلاق، وبهذا يمتاز عن علم الأخلاق.

ثمّ الإسلام دين الله القويم الذي رضيه الله لنا ديناً، ومن يبتغي غيره فلن يُقبل منه، قد هذّب أُمّته بمفاهيم قيّمة توجب سعادة الدارين، وحرّض معنقيه على العلم والعمل، فإنّ الإسلام يعلو ولا يعُلى عليه، وإنّما يعلو بأُمّته، بالمسلمين الواعين والكاملين، فأمر كلّ مسلم ومسلمة بطلب العلم، وأنّه فريضة واجبة عليهما، ولا بدّ من تحصيل وتعلّم المسائل التي يبتلى بها، لا بدّ في الدرجة الأُولى من العلم بأُصول دينه ثمّ بفروعه، وبما يتعلّق بتكاليف الأُمّة الإسلامية أفراداً وجماعات ـ عبادية وأخلاقية واقتصادية وسياسية وغيرها ـ فكلّ واحد عليه أن يتّعظ بموعظة الله سبحانه، أن يقوم لله فرداً أو مثنى، وجمعاً، ويتعلّم ما يتعلّق بالفضائل والمكارم والأخلاق الطيّبة، فإنّ نبيّه صلى الله عليه وآله بعث ليتمّم له مكارم الأخلاق. ثمّ يتعلّم ما يتعلّق بسلامته وصحّته، وبسلامة المجتمع.

وقد قسّم الإسلام الحكم في تعلّم المسلم لهذه العلوم إلى أقسام ثلاثة:

١ ـ واجب عيني.

٢ ـ واجب كفائي.

٣ ـ مندوب.

فالواجب العيني منها: ما يتعلّق أوّلاً بأُصول الدين من معرفة الله وإثبات الصانع وأفعاله، ومنها العدل الإلهي والنبوّة والإمامة والمعاد يوم القيامة، وكلّ هذا بالاجتهاد والدليل والبرهان القاطع.

وثانياً: ما يتعلّق بالواجبات العينيّة في العبادات والمعاملات التي يبتلى بها، وهي كثيرة، اعتاد العلماء على ذكر عشرة منها تسمّى (فروع الدين) كالصلاة والصوم والزكاة والخمس والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتولّي والتبرّي.

وثالثاً: ما تعلّق بتعلّم الأحكام الشرعيّة الفرعية عن أدلّتها التفصيلية لمن كان أهلاً، وفيه الاستعداد والقابلية ليسدّ حاجة الأُمّة، ويكون مرجعاً وفقيهاً جامعاً للشرائط في الفتوى والتقليد.

والواجب الكفائي منها: تعلّم ما يسدّ حاجات المجتمع الفردية والاجتماعية من الصنايع والمهن والحرف والفنون وضروب الأعمال المباحة.

والمندوب منها: علوم الأخلاق الإسلامية.

ولا بدّ لنا من درك المفاهيم الإسلامية بشعبها وأقسامها دركاً صحيحاً، لا يشوبه الخرافات والأوهام والانحراف والتشكيك والضلال.

وهذا إنّما يتمّ برجوعنا إلى الثقلين اللذين خلّفهما لنا رسول الله صلى الله عليه وآله، أعني: الكتاب الكريم والعترة الطاهرة عليهم السلام.

كما تواتر عند الفريقين السنّة والشيعة أنّ الرسول الأعظم محمّد صلى الله عليه وآله قال في مواطن كثيرة: «إنّي تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن تضلّوا بعدي أبداً ما إن تمسّكتم بهما، وإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض».

فهلمّ لنكون على موائد كتاب الله وسنّة رسوله ومنهاج عترته الطاهرين عليهم صلوات الله أجمعين.

وما توفيقنا إلّا بالله، فعليه نتوكّل وإيّاه نعبد ونستعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

مفهوم الدين في الإسلام

الدين لغةً مشتقّ من دان يدين بمعنى اعتقد والتزم وتعهّد، ومنه الدَّين ـ بفتح الدال ـ أي ما يلتزم ويتعهّد به الشخص في ذمّته، وفي الخبر والمثل (كما تُدين تُدان).

ويجري هذا المعنى في الدين الإلهي، فإنّه بمعنى ما يلتزم ويتعهّد به الشخص في ذمّته من القوانين والدساتير التي شرّعها الله له، والدين الذي جاء به الأنبياء جميعاً من آدم إلى الخاتم (١٢٤ ألف نبي) إنّما هو الإسلام بمعنى التسليم لله سبحانه، فقال عزّ من قائل:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ ﴾[1].

ثمّ جعل لكلّ نبيّ منهجة وشرعاً، واختار اسم الإسلام لخاتم الأديان والملّة ورضيه للناس كافّة ديناً قيّماً، ومن يبتغي غيره فلن يقبل منه:

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[2].

(١) آل عمران: ١٩.

(٢) آل عمران: ٨٥.

فالإسلام بالمعنى الأخصّ هو دين الله المرضيّ، وهو دين العقل والفطرة، فإنّه في آيات قرآنه الكريم وأحاديث نبيّه الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام يكرّر دائماً توجيه الخطاب إلى العقل السليم والفطرة السليمة في الإنسان، كما ينبّهه على التفكّر والتعقّل.

ولكن ليس معنى هذا أنّ الإسلام مجموعة مفاهيم وعقائد وأنظمة وقوانين عرضت على الإنسان ليقبل منها ما شاء أو رآه عقله حسناً صحيحاً مقبولاً، وأمّا ما خالف فلا يخضع له ولا يدين ويلتزم به، ولا يعمل على طبقه ومنهاجه... فإنّ هذا يخالف معنى الدين كما ذكرنا، بل يلزم أن يكفر ببعض ويؤمن ببعض. وهذا من الكفر، وليس من الدين والإسلام. فما يأمر فيه الإسلام بالتعقّل والتدبّر إنّما هو في أُصول العقائد، فإذا ثبت عليه بالدليل والبرهان القاطع وجود الله جلّ جلاله وبعثة الأنبياء والرسل وإنزال الكتب والصحف والشرائع المجيدة من قبل الله عزّ وجلّ، وجب عليه بعد ذلك أن يدين ويتعهّد ويلتزم بالعمل بكلّ ما ورد فيه، وثبت لديه، من الطرق الصحيحة الثابتة من شريعة وعقيدة ونظام في كلّ أبعاد الحياة وحقوله، في العبادات والمعاملات والسياسات والعاديات، فإنّ هذا هو معنى الدين، وبدونه لا يتحقّق للدين من معنى.

والدين الإسلامي بصفته نظام شامل كامل من الله سبحانه وإنّه صالح وعادل أنزله الله سبحانه ليدين به الإنسان ويسعد في الدارين ـ الدنيا والآخرة ـ فعليه أن يفرض نفسه على البشرية؛ إذ الإسلام يرى نفسه هو النظام الكامل والصالح للإنسان وأمّا غيره من الأنظمة والمبادئ فإنّها فاسدة وضالّة وظالمة، وإنّه من لم يحكم بما أنزل الله فأُولئك هم الكافرون الفاسقون.

وإذ خيّر الإسلام البشر بين قبوله وردّه يعني خيّره بين الصالح والفاسد

وهذا لا يكون من الله الحكيم العليم. فكيف يشرّع الإسلام لخلقه ثمّ يخيّرهم بينه وبين غيره ؟ ! وهل هذا إلّا من التخيير بين الحقّ والباطل ؟ بين الخير والشرّ ؟ بين الطالح والصالح ؟ بين الفضائل والرذائل ؟ وهل يرضى العقل والعقلاء بذلك ؟ ما لكم كيف تحكمون.

وعليه نستخلص في النتيجة الصحيحة أنّه على الله سبحانه من باب (كتب على نفسه الرحمة) أن يعيّن الدين الصالح والكامل للبشرية، ثمّ يفرض عليه اختياره ولا يخيّره بعدئذٍ فيما يشاء، لأنّ ذلك يخالف عدل الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، ومن هذا المنطلق جاء في قوله سبحانه :

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾[١].

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[٢].

إشكال وجواب :

ربما يتبادر إلى الذهن أنّ الإنسان حينئذٍ ليس مختاراً، فيلزم انتفاء الاختيار عنه وسلب حرّية الإنسان، كما أنّه سبحانه يقول : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾[٣]، وفي سورة (الكافرون) : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[٤]، فكيف نجمع

(١) آل عمران : ٨٥.

(٢) البقرة : ١٣٢.

(٣) البقرة : ٢٥٦.

بين القولين ؟

الجواب :

إنّ الله خلق الإنسان مختاراً كما نعتقد، وإنّه لا جبر ولا تفويض بل أمرٌ بين الأمرين، إلّا أنّه هداه السبيل بإرسال الأنبياء والرسل وإنزال الصحف والكتب وأتمّ الحجّة عليه ﴿ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ ﴾[٥]، أنّه لم يرضَ للإنسان ديناً غير الإسلام، وإنّه من يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، فأنت مختار في اختيار الدين قبل الدخول في الدين، ولا إكراه في الدين لأنّه قد تبيّن الرشد وعرف الحقّ بالدلائل الواضحات والبراهين الساطعات، فلا إكراه في الدين، ولكنّ الله سبحانه لا يرضى لك ديناً إلّا الإسلام، فإمّا أن تكون مؤمناً به وشاكراً، وإمّا أن يكفر الإنسان ويضلّ الطريق ﴿ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾[٦]، فالاختيار قبل الانتخاب وبعده يبقى أصل الاختيار، ولكن لو ارتدّ عن دينه، فإنّه يقتل، لأنّ ارتداده يوجب الفساد في المجتمع، ولا بدّ من قطع جذور الفساد والضلال، ولهذا يقتل المرتدّ الفطري، ويستتاب المرتدّ الملّي لثلاثة أيام فإن تاب فهو وإلّا فيقتل، كما هو مذكور في الكتب الفقهيّة.

كما أنّ قوله تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾[٧] منسوخ بقوله تعالى : ﴿ أُذِنَ

(٤) الكافرون : ٦.

(٥) الأنعام : ١٤٩.

(٦) الدهر : ٣.

(٧) البقرة : ٢٥٦.

لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا المُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾[٣]، فإنّ هذه الآيات الكريمة ناسخة لتلك الآية الشريفة.

إذن: لا يصحّ الاستدلال بالآيات السابقة على سماح الإسلام للإنسان في اختيار الأديان والمبادئ غير الإسلامية، فمن اختار الشيوعية أو الرأسمالية أو أيّ نظام اقتصادي أو سياسي آخر، فإنّه انحرف عن الإسلام ولزمه الكفر والفسوق، وإنّه حكم بغير ما أنزل الله سبحانه وتعالى، فتدبّر.

(١) الحجّ: ٣٩.

(٢) التوبة: ٣٦.

(٣) البقرة: ١٩١.

القسم الأوّل

الكلام في عقائد الإسلام

الكلام في أُصول عقائد الإسلام

التوحيـد

لقد انبعث رسول الله ﷺ محمّد بن عبد الله بالنبوّة في مكّة المكرّمة، فقام ينادي بالناس يا قوم: ﴿ قولوا لا إله الله تفلحوا ﴾، فكانت هذه الكلمة ـ كـلمة التوحيد والإخلاص ـ أساس نبوّته ودعوته.

إذن، فأساس دين الإسلام هو الدعوة إلى الاعتقاد بوجود إله واحد أحد صمد، لم يتّخذ صاحبةً ولا ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليّ من الذلّ، وكبّره تكبيراً، خالق لجميع المخلوقات، وليس لها خالق سواه.

وإنّ الأدلّة العقلية والبراهين الساطعة والفطرة السليمة، كلّها تدعو وتثبت الصانع الأوّل جلّ جلاله: ﴿ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَـاطِرِ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[1]، وإنّ الطرق لمعرفته وإثباته بعدد أنفاس الخلائق، إذ كلّ واحد بـعقله وبـرهانه يـثبت خالق الكون الرحب الوسيع ومبدعه ومدبّره، فإنّه علّة العلل وإليه تـنتهي العـلل والمعاليل، والطرق إلى الله وإن كانت كثيرة إلّا أنّ أُمّهاتها ربما تعدّ بالأصابع كدليل الحدوث للمتكلّمين، أو دليل العلّة والمعلول للفلاسفة والحكماء، أو دليل الجسم

---

(١) إبراهيم: ١٠.

للطبيعيين، أو توحيد الصدّيقين، أو توحيد الفطرة، وكلّها تنتهي إلى الدور والتسلسل وبطلانهما، كما هو ثابت في محلّه في علم الكلام.

فيقال مثلاً: إنّ لنا موجوداً بالبداهة، ولا بدّ لهذا الموجود إمّا أن يكون قائماً بنفسه وذاته، فثبت المطلوب أو يتوقّف في وجوده على موجود آخر، فإن كان الأوّل فيلزم الدور المصرّح وهو باطل لتوقّف الشيء على نفسه، أو يتوقّف على موجود ثالث، فإن كان يتوقّف على الأوّل فهذا دور مظمر بواسطة وهو باطل، وإن كان يتوقّف إلى ما لا نهاية، فإنّه يلزم التسلسل الفعلي وهو باطل، لدليل التطابق وغيره كما هو ثابت في محلّه، كما هناك بيان آخر باعتبار تقسيم مفهوم الوجود إلى واجب الوجود لذاته وممكن الوجود لذاته وممتنع الوجود لذاته، لا نتعرّض له طلباً للاختصار.

فثبت أنّ المخلوقات الممكنة التي تفتقر في وجودها وبقائها إلى علّة موجدة تكون هي علّة العلل، وإنّه الكمال المطلق ومطلق الكمال، الغني بالذات وفي الذات، المستجمع لجميع صفات الكمال من الجمال والجلال، وهو الخالق والصانع الموجد لكلّ ما سواه، وهو الله جلّ جلاله.

صفات الله جلّ جلاله:

يتّصف الله سبحانه وتعالى في العقيدة الإسلامية بأوصاف تنقسم إلى أصناف:

١ ـ الأوصاف الثبوتية، وهي تنقسم إلى ذاتية، أي إنّها عين الذات كالعلم والقدرة والحياة، وصفات فعليّة كالخالقية والرازقية.

٢ ـ الصفات السلبية، بأنّه غير جسم ولا يرى بالبصر ولا يحلّ في شيء

وليس بمعاني وغير ذلك، وقد تسمّى الأوصاف الثبوتية بالأوصاف الجمالية، فإنّها تشير إلى جمال الله عزّ وجلّ، فإنّه جميل ويحبّ الجمال. وتسمّى الأوصاف السلبية بالأوصاف الجلالية، لأنّه يجلّ في ذاته أن يتّصف بها، لأنّها تدلّ على الاحتياج والافتقار، والاحتياج آية الإمكان والممكن، والله سبحانه واجب الوجود لذاته، وإنّه الغنيّ الحميد، فيجلّ عن أن يتّصف بأوصاف مخلوقاته من الجسمية أو الرؤية البصرية أو غير ذلك.

ومعنى هذه التسمية (أوصاف الجمال) أنّ الأوصاف الثبوتية هي جمال وكمال لله، وهو الذات المستجمع لجميع الكمالات. وإنّ الأوصاف السلبية هي صفات يجلّ الله ويتنزّه أن يتّصف بها (سبحان الله) فهو أجلّ من أن يتّصف بهذه الأوصاف وبأوصاف مخلوقاته، ولذلك فهي أوصاف سلبت عن الله جلالاً له، فإنّه الذات المنزّه عن جميع صفات النقص والرذائل والاحتياج.

فالله سبحانه في العقيدة الإسلامية هو الذات المستجمع لجميع الكمالات والمنزّه عن جميع صفات النقص والرذائل، وهذا يعني أنّه يتّصف بصفات ثبوتية وصفات سلبيّة.

أمّا الصفات الثبوتية فهي عند المشهور من علمائنا الأعلام ثمانية:

١ ـ الحياة.

٢ ـ القدرة.

٣ ـ العلم.

٤ ـ الإرادة.

٥ ـ الإدراك.

٦ ـ القِدم.

٧ ـ التكلّم.

٨ ـ الصدق.

فالله عزّ وجلّ : حيّ قادر عالم مريد مدرك قديم متكلّم صادق.

وأمّا الصفات السلبيّة التي لا يتّصف بها الله تبارك وتعالى ويتنزّه عن أن يتّصف بها، وبذلك يكون منزّهاً عن صفات النقص فهي سبعة :

١ ـ نفي الشريك عنه.

٢ ـ نفي التركيب فيه، فهو واحد وأحد، أي لا ثاني ولا ندّ ولا ضدّ ولا مثيل له، كما لا تركيب فيه، فالواحديّة إشارة إلى نفي الشريك، ومقام الأحديّة إشارة إلى نفي التركيب.

٣ ـ نفي الجسمية له.

٤ ـ نفي المحلّ له.

٥ ـ نفي رؤيته لا في الدنيا ولا في الآخرة.

٦ ـ نفي النقص فيه.

٧ ـ نفي الحلول عنه كحلوله في جسم القطب أو عيسى بن مريم أو الإمام عليّ عليه السلام.

الصفات الثبوتية :

١ ـ الحياة :

أمّا صفة الحياة في الله سبحانه، فإنّها تعني أنّ الله تبارك وتعالى حيّ، ولكن لا بمعنى أنّه كان وليست له حياة، ثمّ اتّصف بالحياة، بل معناه أنّ الله تبارك وتعالى كان ولم يزل ولا يزال متّصفاً بالحياة دائماً وأبداً وسرمداً.

ودليله : أنّه لمّا كان عالماً وقادراً فيلزم أن يكون حيّاً، فإنّ كلّ من كان قادراً وعالماً فهو حيّ.

٢ ـ العلم :

وأمّا صفة العلم، فإنّه يعلم بكلّ المعلومات وبكلّ مخلوقاته بعلم حضوري، فلا يخفى عليه شيء، وإنّه يعلم السرّ وما أخفى، وإنّه فعل الأفعال المحكمة والمنتظمة من الذرّات وإلى المجرّات، وكلّ من كان كذلك فهو عالم، وإنّه المجرّد، وكلّ مجرّد عالم بذاته وبغيره، وما سواه ممكن، وكلّ ممكن مستند إلى الواجب لذاته إمّا ابتداءً أو بوسائط، والعلم بالعلّة يستلزم العلم بالمعلوم كما هو ثابت في محلّه.

ثمّ صفة العلم تعني أنّ الله له الإحاطة العلمية بجميع الأُمور، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها، وليست معناه أنّه كان ولم يكن له علم ثمّ علم بالأُمور الواقعة، حتّى يلزم زيادة العلم عليه، فيلزم تعدّد القدماء الذي يتنافى مع وحدانيّته، فهو عالم بكلّ شيء قبل أن يقع، وإنّ الأشياء حاضرة عنده، فهو المحيط وما سواه محاط بعلمه وقدرته.

٣ ـ القدرة :

وأمّا صفة القدرة، فإنّ بالضرورة والبداهة نرى حدوث العالم، فإنّها لم تكن فكانت، فهي مسبوقة بالعدم ـ وهو الحدوث الزماني ـ أو بالغير ـ وهو الحدوث الذاتي ـ ويدلّ على ذلك تغيّره، فإنّ العالم متغيّر بالوجدان، وكلّ متغيّر حادث، إذ لم يكن فكان، أو أنّه مسبوق بالغير فيلزم أن يكون العالم حادث، وإذا كان حادثاً، فيلزم أن يكون موجده قادراً، لأنّ القدرة بمعنى إن شاء فعل وإن شاء ترك مع قصد وعلم وإرادة، ففعله يدلّ على قدرته، فالمؤثّر للعالم قادر ومختار.

وصفة القدرة لا تعني أنّ الله كان ولم يكن قادراً ثمّ اتّصف بالقدرة فتكون زائدة على ذاته، بل كان ولا يزال قادراً على كلّ شيء، وإنّ القدرة كالعلم والحياة هي عين ذات الله جلّ جلاله.

٤ ـ الإرادة :

وأمّا صفة الإرادة، فمعناها أنّ الله سبحانه مريد لكلّ ما وقع ويقع في جميع الكون، صغيره وكبيره، وأنّه لا يقع شيء إلّا بعلمه وإرادته، ولولا إرادة الله لم يقع.

ويدلّ على إرادته، تخصيص بعض الممكنات بالإيجاد في وقت دون وقت آخر، كخلق زيد في هذا اليوم دون أمس ودون غد، يدلّ على تعلّق إرادته بخلقه في خصوص هذا اليوم لحكمته وعلمه. وليست زائدة على الداعي والعلم، بل هو علم خاصّ، وإلّا لزم التسلسل أو تعدّد القدماء وهما باطلان ـ كما هو ثابت في محلّه ـ ولم نتعرّض له طلباً للاختصار.

٥ ـ الإدراك :

وأمّا صفة الإدراك، فمعناها أنّ الله سبحانه بعد أن يريد الشيء ويحدثه في الخارج يدركه في استمرار وقوعه، فلا يستمرّ وقوع شيء إلّا باستمرار إرادة الله التي نسمّيها الإدراك، ومن إدراكه علمه بمدركات الإنسان، وبهذا فهو السميع البصير، أي يعلم بمسموعاتنا ومبصراتنا، لا أنّ له سمع وبصر كما كان للإنسان.

٦ ـ القِدم :

وأمّا صفة القِدم، فمعناها أنّ الله قديم أزلي أبدي لا أوّل له ولا آخر له، فهو الأوّل وهو الآخر، وإنّه السرمدي الباقي وليس بحادث، فليس هناك زمان لم يكن الله فيه موجوداً، بل كان ولا يزال ولم يزل، لأنّه واجب الوجود لذاته وكلّ من كان كذلك فهو القديم السرمدي.

٧ ـ التكلّم :

وأمّا صفة التكلّم، فليس معناه أنّ الله يتكلّم بلسان وجارحة، بل إنّما يخلق الصوت في جهة خاصّة فيسمعه الذي يريده الله للنبوّة أو الرسالة، ومنه الوحي ومنه القرآن ومنه الأحاديث القدسية.

وعموميّة قدرته تدلّ على ثبوت الكلام، فإنّه لمّا كان قادراً على كلّ شيء فهو قادر على إيجاد حروف وأصوات في أجسام جماديّة دالّة على المراد، وأمّا الكلام النفساني الذي يقوله الأشاعرة فهو غير معقول، لعدم تصوّره.

٨ ـ الصدق :

وأمّا صفة الصدق، فإنّه عزّ وجلّ صادق وليس بكاذب، لأنّ الكذب قبيح بالضرورة، وإنّه يقع نتيجة الاحتياج أو الجهل، والله ليس بمحتاج فهو القادر الغني بالذات، وإنّه العالم بكلّ المقدورات والممكنات، فلا يقول ولا يتكلّم إلّا صدقاً وعدلاً وعلماً وحكمةً جلّ جلاله.

الصفات السلبية :

لقد ذكرنا أنّها صفات يجلّ الله سبحانه أن يتّصف بها، فهو منزّه عنها، لأنّها من صفات النقص والرذائل، ومرّ علينا في تعريف الله عزّ وجلّ أنّه الذات الواجب الوجود المتسجمع لجميع صفات الكمال والجمال، والمنزّه عن جميع صفات النقص والرذائل، فهذه الصفات السلبيّة هي في الحقيقة تفسير النصف الثاني من التعريف.

وقلنا إنّها سبعة كما عدّدها علماء العقائد والكلام في الإسلام، وهي كما يلي :

١ ـ نفى التركيب :

إنّه سبحانه لا تركيب فيه، فليس بمركّب لا من موادّ جسمية ولا من معنوية، والتركيب تارة عقلاً كتركيب الماهية من الجنس والفصل، وأُخرى خارجياً كتركيب الجسم من مادّة وصورة، والتركيب لازمه الاحتياج في تحقّق كلّه وتكوّنه وتركّبه إلى أجزائه، فيفتقر المركّب إلى الغير، والله سبحانه واجب الوجود لذاته بذاته في ذاته، وهو الغنيّ المطلق جلّ جلاله، فليس بمركّب، كما لا مكان له.

٢ ـ نفي الجسم والجسماني :

ليس الله جسماً، فإنّ الجسم من الجواهر وفيه الأبعاد الثلاثة، الطول والعرض والعمق، فيأخذ حيّزاً في الوجود، ويحتاج إلى مكان، والله الغنيّ فليس بجسم، وليس كمثله شيء، فليس في جهة من الجهات، فأينما تولّوا وجوهكم فثمّ وجه الله، وليس بعرض ولا جوهر ولا يجوز أن يكون في محلّ، كما ليس فيه خواصّ الجسم والجسمانيات.

٣ ـ نفي الحوادث عنه :

ليس الله محلاً للحوادث، فإنّه لو كان للزم انفعاله بغيره، والانفعال من خواصّ الممكنات، فيلزم أن يكون ممكناً، وهذا يتنافى مع غناءه المطلق، كما يلزمه النقص والله منزّه عن النقص والرذائل، فهو واجب الوجود المستجمع لجميع صفات الكمال.

٤ ـ لا يُرى بالبصر :

إنّ الله سبحانه لا يُرى بالبصر لا في الدنيا ولا في الآخرة، فيستحيل عليه الرؤية البصرية مطلقاً، خلافاً للمجسّمة والكرامية والوهابية، فلا تراه الأبصار،

إنّما تراه القلوب التي في الصدور بحقائق الإيمان، فإنّه سبحانه أحد بسيط مجرّد محض، والمرئي يكون ذا جهة، والله ليس في جهة كما مرّ، فلا يرى بالبصر، فإنّ ما يرى بالبصر جسماً، والله ليس بجسم.

٥ ـ ليس لله شريك :

إنّ الله عزّ وجلّ واحد لا شريك له، أحد لا تركيب فيه، ويدلّ عليه دليل التمانع، فلو كان في السماء والأرض إلهان لفسدتا، وعدم الفساد دليل على وحدانية الله سبحانه. كما أنّ الأنبياء دعوا الناس إلى توحيد الله عزّ وجلّ : (قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا)، ولو كان إلهان للزم الإمكان، والله واجب الوجود لذاته، فهو الواحد الأحد، وللتوحيد مراتب كالتوحيد في الذات وفي الصفات وفي العبادة وفي كلّ اسمٍ من أسمائه.

٦ ـ نفي المعاني والأحوال عن الله :

فليس الله سبحانه قادر بقدرة وعالم بعلم، كما تقوّله الأشاعرة، فإنّه يلزمه تعدّد القدماء الذي يتنافى مع مقام الواحدية، كما يلزمه الكفر، فالصفات الثبوتية الذاتية أي العلم والقدرة والحياة هي عين ذات الله سبحانه، إنّما الاختلاف في المفاهيم والعناوين.

ولو كان الله العالم إنّما يعلم بعلم للزم أن يحتاج إلى ذلك العلم، وهذا يتنافى مع غنائه المطلق، كما يتنافى مع كونه واجب الوجود لذاته، فإنّ الاحتياج علامة الإمكان والممكن.

٧ ـ ليس الله محتاجاً :

فإنّه هو الغنيّ عن العالمين، ولا يحتاج إلى غيره مطلقاً، لا في ذاته ولا في صفاته، بل يفتقر كلّ شيء إليه لإمكان الأشياء والغناء الذاتي فيه عزّ وجلّ،

ووجوب وجوده يقتضي استغناؤه عن الغير.

وزبدة الكلام في الصفات السلبية: أنّها ترجع إلى كونه سبحانه واجب الوجود لذاته، وأنّه الغنيّ في الذات، فيسلب عنه صفات الخلق الدالّة على الاحتياج والافتقار.

هذا، وما أكثر النصوص الدينية من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تدلّ على الصفات الثبوتية والصفات السلبية لم نتعرّض لها طلباً للاختصار، والله المستعان.

العدل

موضوع علم الكلام هو البحث عن الله سبحانه وصفاته وأفعاله، ولازمه البحث عن النبوّة والإمامة والمعاد، والأُصول الثلاثة الأخيرة ـ أي النبوّة والإمامة والمعاد ـ تتوقّف على البحث عن فعل من أفعال الله سبحانه وهو العدل الإلهي، فإنّ الله سبحانه عادل لا يخلّ بواجب كما لا يظلم العباد، ولهذا أُفرد بحث العدل وجعل الأصل الثاني بعد التوحيد من أُصول الدين، لما يبتني عليه من المباحث الكلامية المهمّة، لا سيّما الأُصول الثلاثة الأُخرى.

والعدل في الواقع يرجع إلى الصفات الثبوتية الكمالية الجمالية، وبدونه لا يتمّ شيء من الأديان ولا يمكن أن يصدّق نبيّ من الأنبياء عليهم السلام. فمن عدله أرسل الرسل وبعث الأنبياء وأنزل الكتب وأمر ونهى وأثاب وعاقب. وإنّ الله كتب على نفسه الرحمة، فالقول بالعدل الإلهي لا يتنافى مع الحرية الإلهية، فإنّها في نطاق العدل الإلهي.

ويدلّ على العدل الإلهي الأدلّة العقليّة والنقليّة، فإنّ الله يأمر بالعدل فكيف لا يكون هو عادل، وبالضرورة والوجدان وحكم الفطرة والعقل السليم نجد حسن بعض الأفعال، كشكر المنعم، وقبح بعضها الآخر، كالظلم، فنعتقد بالحسن والقبح الذاتيين العقليين، وإلّا يلزم رفع الأحكام الشرعية، فلو جوّزنا صدور القبيح والظلم من الله لما بقي وثوق بوعده ووعيده، ويلزم انحراف الناس عن الصراط المستقيم، كما يلزم من نفي العدل الإلهي تعذيب المؤمن مع إيمانه وطاعته، وإثابة الكافر مع كفره ومعاصيه، والتالي باطل فالمقدّم مثله. فليس كلّ حسن ما حسّنه

الشارع فقط، بل فيه ما حسّنه العقل أيضاً، وكذلك القبيح، ومن لم يقل بالعدل الإلهي ـ كالأشاعرة ـ فإنّه لا يقيم للعقل وزناً في حياته، بل لا عقل له.

فالله منزّه عن القبائح وإرادتها وإن كان قادراً عليها، فإنّ فعل القبيح يصدر من الجاهل والعاجز، والله العالم والقادر، وهو اللطيف بعباده.

فالظالم جدير بالمؤاخذة والعقاب، كما أنّ العادل جدير بالمثوبة والإحسان، وقد نهى الله عن الظلم وأمر بالعدل، فكيف يرتكب الظلم، فإنّه قبيح عقلاً ونقلاً، فهو العادل والعدل، جلّ جلاله، فما يصدر عن الله عن لطفه وحكمته ومطابق للعدل، ومن عدله ولطفه أوجب على نفسه أن يرسل الرسل وينزل الكتب لهداية عباده وخلقه ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[1].

ولا يخفى أنّ في أصل العدل الإلهي مباحث قيّمة ومسائل كثيرة كمسألة الحسن والقبح العقليين الذاتيين ومسألة الجبر والاختيار والقضاء والقدر والهداية والضلالة والألم واللذّة والأرزاق والآجال والأصلح وحقيقة اللطف والعدالة الاجتماعية وغير ذلك، لم نتعرّض لها طلباً للاختصار.

ثمّ خلقه للمخلوقات لم يكن عبثاً ولَعِباً، إنّما كان عن حكمة ومصلحة وعلّة غير راجعة إليه، لغنائه، بل راجعة إلى المخلوقين أنفسهم لكمالهم وتكاملهم.

ومن الواضح المعلوم أنّ المخلوقين لا يعلمون بالغاية والهدف من خلقتهم، ولا يعرفون كيف يؤدّوا شكر خالقهم، إلّا إذا أعلمهم وهداهم السبيل.

وحيث نفينا عن الله تعالى الخالق العليم الحكيم صفة الجسميّة، فلا يمكن حينئذٍ المباشرة لإعلام المخلوقين بنفسه، وبيان أحكامه من الأوامر والنواهي، إذ

(١) النساء: ١٦٥.

لا تناسب بينه تعالى وبينهم، وللعلل وأسباب أُخرى، وإذا لم يعلم المخلوقون بالغاية والهدف من خلقتهم، لا يتمكّنون من السير والعمل للوصول إلى تلك الغاية وذلك الهدف.

إذن، فلا بدّ أن يبعث الله الخالق العظيم رسولاً إلى المخلوقين من أنفسهم ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[1]، و ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾[2].

وخلاصة الكلام:

إنّ الله واجب الوجود لذاته، فهو غنيّ بالذات، وهو العادل ولا يظلم العباد، فلا يترك ما يجب عليه أن يفعل، فإنّه هو الذي كتب عليه نفسه الرحمة، فلا يخلّ بواجب، والله خلق الخلق لا للعب ولا عبثاً، بل كان غنيّ من خلقتهم، فخلقهم لأجلهم، وهم لا يعلمون بذلك، فلا يهتدون الطريق، فوجب على الله عزّ وجلّ هدايتهم، ولا يكون ذلك بالمباشرة للاستحالة، فلا بدّ من رسولٍ ونبيّ، ثمّ حفظ الرسالة بالخلافة والإمامة الحقّة، وتعليم الناس وهدايتهم، وإنّ الهدف من خلقتهم وفلسفة حياتهم العلم والرحمة والعبادة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[3]. وكيفية العبادة المطلوبة لله تعلم من خلال رسل الله وأُمنائه وخلفائه في أرضه. وبهذا يلزم الإيمان بأصل ثالث من أُصول الدين.

(١) الجمعة: ٢.

(٢) طه: ١٣٤.

(٣) الذاريات: ٥٦.

النبوّة العامّة والخاصّة

نقصد من النبوّة العامّة هو البحث عن مطلق النبوّة من جهة لزومها وضرورتها عقلاً ونقلاً وبعض شرائط النبيّ بصورة عامّة من آدم عليه السلام إلى الخاتم صلى الله عليه وآله، وأمّا النبوّة الخاصّة فالمقصود منها نبوّة خاتم الأنبياء محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله ومعاجزه الخالدة وأنّه أفضل الأنبياء وسيّد المرسلين، ومعجزته الخالدة هي القرآن الكريم.

فالنبيّ: هو الإنسان المطّلع على (أنباء) السماء بالمباشرة أو (الوحي) أو بـ(الرؤيا) أو بـ(إلهام خاصّ) أو بواسطة الملائكة.

والنبوّة مصدر النبيّ ومعناه وقوع الإنباء والإخبار من السماء على من يختاره الله لإرساله من قبله إلى عباده بشريعته ونهجه.

وبما أنّا ذكرنا أنّ النبوّة والرسالة بين الله وعباده ممّا لا بدّ منه للإجابة على الغاية من الخلقة، فلا بدّ من النبوّة حتّى في مبدأ الخلقة (خلقة الإنسان).

فلا بدّ أن يكون الإنسان الأوّل رسولاً إلى من بعده، كما يكون هو الحجّة الكبرى في خلق الله، ولولاه لساخت الأرض بأهلها.

وقد ثبت بالآيات والروايات المتواترة، واتّفق عليه أصحاب الأديان أنّ آدم صفوة الله أبو البشر هو خليفة الله الأوّل على الأرض، فهو النبيّ الأوّل.

ثمّ ورد عدد مجموع الأنبياء والرسل في عدّة من الروايات أنّه (١٢٤٠٠٠) مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، آخرهم وناسخ شرائعهم نبيّنا الأعظم محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله.

وورد في عدّة من الروايات أيضاً أنّ خمسة من هؤلاء الأنبياء (أُولي عزم) ومعناه أنّهم مبعوثون بشريعة وكتاب إلى كافة أهل زمانهم، يعمّ جميع البشر في عصرهم فتكون رسالتهم عالمية في عصرهم، حتّى أتي ذو عزم آخر من ورائهم، وأمّا خاتم الأنبياء فبعد إكمال الدين، فإنّ شريعته السمحاء هي لكلّ العصور إلى يوم القيامة ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[1].

وأُولي العزم هم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد عليهم صلوات الله أبد الآبدين، وكتاب نوح وإبراهيم (صحف) وكتاب موسى (التوراة) وكتاب عيسى (الإنجيل) وكتاب نبيّنا محمّد (القرآن الكريم) المهيمن على كلّ الكتب وهو ناسخ الكتب السماوية السابقة.

وأُمّة إبراهيم، قيل: الصابئة، وأُمّة موسى: اليهود، وأُمّة عيسى: النصارى، وأُمّة محمّد: المسلمون، وهي الأُمّة الباقية إلى يوم القيامة.

ولا يخفى أنّ العقل يحكم بحسن البعثة لاشتمالها على فوائد كثيرة وعظيمة لا تحصل إلّا بالنبوّة والبعثة، ويدلّ على ذلك الفطرة السليمة، فإنّها تطالب من ربّها الهداية ومعرفة الحقائق، ولا يتمّ ذلك إلّا بالوحي والنبوّة، كما يطالب الإنسان بالعدالة الاجتماعية والقسط ولا يتمّ إلّا بوحي من السماء، ولا بدّ من الإنسان الكامل من جميع الجهات ليكون القدوة والأُسوة والسبب المتّصل بين السماء والأرض. وبالنبوّة يتمّ اللطف الإلهي بما يقرّبه للطاعة ويبعّده عن المعصية، ويؤمّنه من الخوف والاضطراب في تصرّفاته وعباداته، كما بالنبوّة يعتضد العقل في أحكامه، فإنّ العقل هو الرسول الباطني، والنبيّ هو الرسول الظاهري،

---

(١) آل عمران: ٨٥.

وأحدهما يعاضد الآخر، وبالنبوّة يحفظ النوع الإنساني، بلا بدّ أن يكون النبيّ من البشر، ليكمل البشرية، ويعلّمهم نظام الحياة السليمة، ويسوقهم إلى السعادة الأبدية.

ويشترط في النبيّ: العصمة وكمال العقل والذكاء وقوّة الرأي والنزاهة عن كلّ ما ينفر عنه الطبائع من دناءة الآباء وعهر الأُمّهات، وغير ذلك.

ونشترط في عصمته أن تكون من أوّل حياته إلى آخرها لعدم انقياد القلوب إلى طاعة من عهد منه في سالف عمره أنواع المعاصي، فلا بدّ أن يكون إنساناً كاملاً من جميع الجهات.

وبما أنّ الرسول لا يؤدّي رسالته إلّا بالإخبار عن السماء، والخبر في البشر يحتمل الصدق والكذب، فلا بدّ حينئذٍ للرسول من دليل وبرهان يدلّ على صدق دعواه، وهو ما يعجز عنه سائر البشر ليستدلّ به على صدق دعوى رسالته، وهي (المعجزة)، فالنبيّ يدّعي النبوّة وتظهر المعجزة على يديه، وكلّ من كان كذلك فهو صادق في دعوته، فالنبيّ صادق في دعوته للنبوّة والرسالة.

وقد كان لكلّ واحد من الأنبياء والرسل (معجزة)، فمعجزة موسى كليم الله، العصا واليد البيضاء، فإنّه يلقي العصا فتصبح ثعباناً عظيماً تلقف وتأكل، ثمّ تعود كما كانت على سيرتها الاذولى. ويده كان يدخلها في جيبه ويخرجها، فتصبح بيضاء مشرقة، ممّا كان يعجز عنه أهل زمانه الماهرون في السحر، ولذلك صدّقوه وآمنوا به وبدعوته، فآمنت به بنو إسرائيل.

ومعجزة عيسى بن مريم: إحياء الموتى ونفخ الروح في الأشباح والأجسام والصور، فكان يصنع طيراً من الطين ثمّ ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ويُبرئ الأكمه، أي يشفي الأعمى والأصمّ والأبرص ممّا كان يعجز عنه مهرة

الأطباء في زمانه، ولذلك آمنوا به وصدّقوه.

ومعجزة نبيّنا محمّد ﷺ الكبرى: القرآن الكريم، فإنّه المعجزة الخالدة الناسخة لجميع الكتب والشرائع إلى يوم القيامة، وهناك لرسول الله ﷺ معاجز كثيرة أُخرى أتت على ذكرها كتب السير والتواريخ متواترة ومستفيضة، ممّا لا يقبل الشكّ والريب والجدال، وهي بالمئات، فمنها: إشباع جماعة كثيرة على مائدة واحدة بطعام قليل كما كان في بداية دعوته، وتكلّم الحصى والأشجار والحيوانات وغيرها.

وإعجاز القرآن الكريم من نواحي كثيرة، منها: الفصاحة، والبلاغة إلى حدّ الإعجاز، فقد تحدّى الرسول الأعظم محمّد والقرآن الكريم جميع المشركين أوّلاً أن يأتوا بعشر سور مفتريات، ولكنّها تبلغ بلاغة القرآن، والعرب آنذاك وصلوا في البلاغة والفصاحة إلى القمّة والشموخ حتّى علّقوا أشعارهم (المعلّقات السبعة) على أستار الكعبة.

وثانياً تحدّاهم أن يأتوا بسورة من مثله، وكان المشركون ـ آنذاك ـ إذا أتوا بمثل ذلك فإنّهم لا يحتاجون في مكافحة دعوة محمّد ﷺ إلى حروب طاحنة وإلى عناء كثير وشديد إلى حدّ القتال والحروب الدامية، وكانوا قد بلغوا على زعمهم منتهى مراتب الفصاحة والبلاغة، وهذا ممّا يدلّ على اعترافهم العملي بالعجز عن مقابلة أو مماثلة بلاغة القرآن وفصاحته، ممّا أجبر كثيراً منهم بالاعتراف والتصديق والإيمان بهذا القرآن ورسالته ﷺ، وإلى يومنا هذا، فإنّ القرآن غضّ جديد لا يبلى، ولو قرأته كلّ يوم، فإنّه لا يملّ منه، بل يزداد الإنسان شوقاً ورغبةً وحبّاً واطمئناناً وتقوى، وإنّه يتماشى مع كلّ عصر وفي كلّ مصر.

وهناك في القرآن ما عدا الفصاحة والبلاغة نواحي إعجاز كثيرة أُخرى،

منها : الإخبار عن المغيّبات، ممّا يكون في المستقبل، وقد تحقّق كلّ ما أخبر به، ممّا دلّ أيضاً على صدق دعوته. ومنها : إخباره بمؤامرة المشركين على قتل رسول الله. ومنها : وعده لرسول الله بالعودة إلى مكّة بعد الهجرة. ومنها : إخباره عن فتح رسول الله لمكّة المكرّمة ظافراً منتصراً. ومنها : إخباره عن غلبة الفرس على الروم وغلبة الروم على الفرس بعد بضع سنين، وكان الأمر كما قال. ومنها : عاقبة سوء أبي لهب، وغير ذلك، أضف إلى ذلك إعجازه في معارفه وعلومه، لم نتعرّض له طلباً للاختصار.

عصمة الأنبياء :

ثمّ كما ذكرنا لا بدّ أن يكون النبيّ معصوماً من الزلل، ومفطوماً من الخلل، ويدلّ على ذلك وجوه :

منها : لو لم يكن معصوماً لزالت الثقة والاطمئنان بأمانته في رسالته السماوية قولاً وعملاً، وذلك لأنّه إن كان إنساناً عادياً كسائر الناس ولم يكن معصوماً عن المعاصي والخطأ والزلل والاشتباه، لجاز أن تدفعه طبائعه البشرية إلى تجاوز حدود الله المرسومة له في الدين.

وحينئذٍ احتمل الناس أن يكون غير صادق في ما يقوله ويعمله مدّعياً أمر الله به، وإذا جاء هذا الاحتمال زال الاطمئنان بصحّة دعواه وبصحّة أعماله وأقواله، وحينذاك لم يجب على سائر الناس أن يتّبعوه في كلّ ما يقول ويعمل وذلك يناقض الغرض من بعثته.

ومنها : ولأنّه لو لم يكن معصوماً لجاز أن يرتكب المعاصي والآثام، وحين ذاك يجب على أُمّته أن ينهوه عن تلك المعصية نهياً عن المنكر، وحينذاك يصبح

النبيّ الذي ينبغي أن يكون آمراً بالمعروف وعاملاً به، وناهياً عن المنكر ومنتهياً عنه، مأموراً ومنهياً من قبل رعيّته وأُمّته، ويكون ممّن يقول ولا يعمل، ويأمر الناس بالبرّ وينسى نفسه، وينهى عن خلق قبيح ويأتي به، ويعلّم الناس الصلاة ولا يصلّي، وأخيراً يكون من مصداق (حاميها حراميها) والعياذ بالله، فيسقط محلّه من القلوب، وهذا أيضاً ممّا يناقض وينافي الغرض من بعثته وإرساله، وذلك قبيح على الحكيم اللطيف سبحانه وتعالى، فلا يكون، بل لا بدّ من العصمة.

ومعناها : أنّ الله سبحانه حينما خلق الخلق و ﴿ **أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى** ﴾[1]، حينذاك عرضهم وعلم بسابق علمه تعالى أنّ هؤلاء حينما يظهرون إلى الوجود في الحياة الدنيا في سلسلة الخلقة البشرية الطبيعية، كم يكونون مطابقين لما يريده منهم في عالم الدنيا بالإرادتين التشريعية والتكوينية. وكان من الطبيعي أن يكونوا على درجات كثيرة التفاوت ﴿ **وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً** ﴾[2] بعداً وقرباً، فبالبعد إلى درجة إبليس المناقض لأوامر الله مئة بالمئة، وفي القرب إلى الدرجة التي نسمّيها بـ(العصمة) وهي الموافقة لما يريده الله مئة بالمئة.

ولعلّنا أن نستطيع أن نفهم هذا من مقدّمة (دعاء الندبة)[3] الوارد في زمن الغيبة عن الناحية المقدّسة وذلك فيما يقول : «اللهمّ لك الحمد على ما جرى به قضاؤك في أوليائك الذين استخلصتهم لنفسك ودينك، إذ اخترت لهم جزيل

---

(١) الأعراف : ١٧٢.

(٢) نوح : ١٤.

(٣) مذكور في آخر مفاتيح الجنان لخاتم المحدّثين الشيخ عباس القمّي قدس سره.

ما عندك من النعيم المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال بعد أن شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنيّة وزخرفها وزبرجها، فشرطوا لك ذلك وعلمت منهم الوفاء به، فقبلتهم وقرّبتهم وقدّمت لهم الذكر العلي والثناء الجلي وأهبطت عليهم ملائكتك وكرّمتهم بوحيك ورفدتهم بعلمك وجعلتهم الذريعة إليك والوسيلة إلى رضوانك»...

فالمستفاد من نصوص هذه المقدّمة من دعاء الندبة الواردة من الناحية المقدّسة في معنى العصمة: إنّ الله شرط على هؤلاء المعصومين الزهد في هذه الدنيا، حتّى لا يتلوّثوا بالمعاصي، فإنّ حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة، وإنّهم سيبعثون في محيط رذيل ومشرك ومتلوّث بحبّ الدنيا والملاذ والمعاصي، فلا بدّ من صيانته من قبل، فشرط عليهم الزهد والبعد عن مشتهيات هوى أنفسهم الحيوانية والشهوانية، وأن يبتعدوا عن زخارف هذه الدنيا الدنيّة وزبارجها، وعلم بسابق علمه وهو العالم بكلّ شيء أنّ هذه الجماعة من البشر يشترطون على أنفسهم بهذه الشروط ويقفون عند شروطهم حتّى يفوا بها على التمام والكمال، وهذه هي العصمة... ولمّا علم هذا منهم استخلصهم واصطفاهم لنفسه ولدينه، فجعلهم مقرّبين لديه وقدّم لهم الذكر العلي والثناء الجلي وأهبط عليهم الملائكة بالوحي، وأعطاهم من علمه، وجعلهم الذريعة والوسيلة بينه وبين خلقه.

ولمّا علم أنّ هؤلاء يوفون بشروطهم هذه وإن كانت الأُمور كلّها تضادّهم وتزاحمهم، وأنّهم لا يطغون ولا يعجبون بأنفسهم، ولا يتكبّرون عن حدودهم، وإن قدّم لهم كلّ جميل... فلذلك هو الذي قدّم لهم الذكر العلي والثناء الجلي وكرّمهم وعظّمهم.

ويمكن أن نلخّص معنى العصمة كما ورد في الدعاء (دعاء الندبة) بكلمتين

وهما (شرطت) و (علمت) أي: شرطت عليهم الزهد وعلمت منهم الوفاء به.

ثمّ ممّا يدلّ على عصمة نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله بدليل نقلي قوله تعالى في آية التطهير: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾[1].

إنّ الله سبحانه كما أراد بإرادة تكوينية طهارة أهل البيت عليهم السلام وذهاب الرجس عنهم مطلقاً، والرجس هو: كلّ ما يدنّس الإنسان ويلوّثه من الأُمور القبيحة والآثام والمعاصي، فإذا أراد الله ذلك لأهل البيت عليهم السلام بالإرادة التشريعية وحسب كما في أوامر شريعته تعالى، فهي عامّة لكافّة البشر وليست خاصّة لأهل البيت حتّى يقول سبحانه ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ﴾ إذ أنّ (إنّما) أداة حصر، والآية في مقام إسباغ فضيلة على أهل البيت عليهم السلام، فإذا كانت هذه الطهارة هي الطهارة الشرعيّة كما في أوامر الشريعة من الغسل والوضوء وإزالة النجاسات، فلم تكن ثَمَّ فضيلة خاصّة لأهل البيت عليهم السلام حتّى تخصّ الآية ذلك بهم.

إذن: يجب أن تكون طهارة خاصّة غير هذه التي تحصل بأوامر الشريعة، بل يجب أن تحصل تلك بإرادة تكوينية خاصّة من الله عزّ وجلّ، فإن كانت تلك الطهارة وتعلّق إرادة الله بها بمعنى: إنّ الله أراد وشاء بإرادة تكوينية أن لا يصل إليهم شيء من هذه النجاسات المادية المذكورة في الشريعة أو أنّهم لا يتأثّرون بها كسائر البشر، فذلك غير حاصل لهم، إذ أنّهم أيضاً بشر كسائر البشر تصل إليهم هذه النجاسات بالطبع ويتأثّرون بها كغيرهم حسب الشرع، ولذلك كانوا يتطهّرون منها كغيرهم سواء.

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

إذن، فيجب أن تكون الطهارة طهارة من النجاسات المعنوية أي الذنوب والمعاصي، وإلّا لم تستقم للآية غير هذا المعنى أيّ معنىً محصّل معقول.

هذا بالإضافة إلى ما ورد في تفسير هذه الآية من نصوص الروايات والأحاديث عن طريق العامّة والخاصّة، ممّا يعيّن نفس هذا المعنى، أي العصمة الذاتية لهم عليهم السلام، وسيّد أهل البيت هو الرسول الأعظم محمّد صلى الله عليه وآله فثبت عصمته بدليل عقلي ونقلي.

كمال الأنبياء والأوصياء الخَلقي والخُلقي:

وبنفس مقتضى العصمة في الأنبياء والأوصياء من بعدهم يجب أن نقول بكمالهم الخَلقي والخُلقي، وتفوّقهم فيهما على جميع أقرانهم من أبناء زمانهم، إذ أنّ ذلك ممّا يساعدهم في أداء رسالتهم السماوية ووظائفهم الدينية أكثر فأكثر، وعكس ذلك ممّا ينقض الغرض من بعثتهم وتعيينهم واصطفائهم.

وعلى هذا نقول بأنّهم يجب أن يكونوا أفضل أهل زمانهم وأكملهم خَلقاً ومنطقاً، وأعلمهم وأعرفهم وأدراهم بالأُمور، وأورعهم وأتقاهم وأزهدهم، وأن لا يكون فيهم أيّ نقص من الكمالات الخَلقية والخُلقية والمنطقية والعقلية والجسدية، ولولا ذلك للزم تقديم المفضول على الفاضل، وهو يتنافى مع حكم العقل والنقل.

دفع شبهة:

وبناءً على هذا الأساس العقلي والنقلي والقول بالعصمة والكمال نؤوّل أو نردّ ـ أو لا أقل نتوقّف عن ـ قبول ما ورد في النقل من الأخبار والقصص

والحكايات التي تحكي ما يتنافى مع العصمة والكمال في الظاهر، كقصص داود وزوجة قائده العسكري (أوريا) كما في بعض الكتب، وحكمه في غنم القوم إذا نفشت في الزرع، وقصّة إظهار المحبّة من يعقوب ليوسف ممّا سبّب إثارة حسد الإخوة له، وقصّة مغازلة زليخا ليوسف عليه السلام، وقضيّة ابتلاء أيّوب بداء لا دواء له ممّا ثقب جسمه ثقبةً ثقبة، وجعله طعمةً للديدان وهو حيّ يرزق... ومن معصية آدم بأكله من الشجرة المنهي عنها.

فإنّا نعتقد بنزاهة الأنبياء عليهم السلام وعصمتهم وطهارتهم مطلقاً.

وعلى هذا نؤوّل ما ورد في الآيات والروايات إن كانت ممّا يوهم أو يشعر بظاهره أنّ فيهم من هذه النقائص شيئاً، كقصّة معصية آدم عليه السلام في الجنّة، كما قوله تعالى: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾[1]، فإنّا نقول: إنّ المراد بالمعصية هنا هو ترك الأولى وليست المعصية المحرّمة، فإنّها في دار الدنيا ودار التكليف، وإنّما كان ذلك منه امتحاناً من الله تعالى بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾[2]، أي اختبرنا وامتحنّا عزم وإرادة آدم على نبيّنا وآله وعليه السلام فلم نجد له عزماً قاطعاً، ولذلك ترك الأولى وارتكب خلافها. والمعصية في اللغة من عصى يعصي وهي تشبيه للمخالفة بالعصى، فكما أنّ العصى عود يابسة لا يطيع الكفّ، كذلك العاصي كأنّه خالف الإطاعة، وما انقاد لأمر الله تعالى، فكأنّه صار كالعصى لا يطيع الكفّ. وذلك أعمّ من عدم الانقياد للحرمة أو الكراهة أو ترك الأولى، فلا دليل على كون معصية آدم من نوع الحرمة، وقد دلّ

(١) طه: ١٢١.

(٢) طه: ١١٥.

الدليل القاطع العقلي على أنّها من ترك الأولى، ولهذا لم يُعدّ آدم من أنبياء أُولي العزم الخمسة.

وكذلك قصّة موسى والرجلين من شيعته وعدوّه، وذلك قوله تعالى عن لسان عدوّه: ﴿ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ ﴾[1]، والجواب أنّ القتل كان على كافر فلا ضير فيه على موسى. وكذلك الموارد الأُخرى، وقد تعرّض لها علم الهدى السيّد المرتضى في كتابه القيّم (تنزيه الأنبياء)، فراجع.

(١) القصص: ١٩.

الإمامة العامّة والخاصّة

الإمامة إنّما هي امتداد لخطّ النبوّة، والبحث فيها أيضاً يكون تارةً بصورة عامّة، ويعني بها البحث عن مفهوم الإمامة في مصطلح المتشرّعة وضرورة الإمام بعد الرسول، وأنّه خليفته وحافظ شريعته، والإمام من بعده، وأُخرى محور البحث فيه عن أفضل الناس بعد النبيّ الأعظم محمّد صلى الله عليه وآله وأنّه الخليفة والإمام من بعده بنصّ من الله ونصب من رسوله، وأنّه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وأولاده الأحد عشر عليهم السلام.

فالإمامة: منصب إلهي للرئاسة على أُمور الدين والدنيا لإقامة الأحكام الإلهية، وحمل الرسالة السماوية نيابة عن الرسول والنبيّ.

والإمام: من تقلّد هذا المنصب من قبل الله تعالى بواسطة الرسول.

فنعتقد أنّ الإمامة منصب إلهي وبنصّ من الله ورسوله على خلاف ما يزعمه بعض الناس من أنّها رئاسة عامّة على أُمور الدين والدنيا بعد النبيّ باختيار الناس.

ودليلنا على ذلك: آيات القرآن الكريم، فإنّ جعل الخلافة بيد الله بجعل تكويني، وأنّ الله جعل داود خليفة كما جعل إبراهيم إماماً. ونقرأ في قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾[2].

(١) القصص: ٦٨.

(٢) النساء: ٦٥.

فإنّ هذه الآيات بظاهرها صريحة في نفي الخِيَرة في أمر الدين عن الناس جميعاً من الكافرين والمسلمين مطلقاً أبداً، فكيف لنا نقول برأينا في أمر الإمامة والخلافة بعد رسول الله ﷺ وهي رئاسة عامّة على أُمور الدين والدنيا ؟ ! ما لكم كيف تحكمون ؟ وبماذا عند الله تجيبون ؟

لا أدري كيف يكون جواب أبناء العامّة ـ مع وجود هذه الآيات الصريحة في نفي الاختيار في أمر الدين على الأُمّة ـ وكيف يدلوا بآرائهم في هذا الأمر الخطير والهامّ جدّاً ؟ ويقولون فيه باختيار الأُمّة وانتخابهم للإمام بأحد طرق ثلاث :

١ ـ الإجماع.

٢ ـ الشورى.

٣ ـ ولاية العهد من الخليفة السابق لوليّ العرش اللاحق.

واستدلّوا لكلّ واحد من هذه الطرق بأدلّة واهية سنداً ودلالة.

فقالوا : إجماع المسلمين حجّة شرعيّة ثابتة لحديث ـ نسبوه إلى الرسول ﷺ قوله : ـ لا تجتمع أُمّتي على الخطأ.

كيف لا تجتمع وقد اجتمعت على خطأ ما أعظمه وأكبره ؟ ألا وهو قتل سيّد الشهداء سبط رسول الله الإمام الحسين عليه السلام وسبي نسائه وقتل أهل بيته وأصحابه، فهل يوجد خطأ أفظع من ذلك ؟ أو يقال : لم تجتمع الأُمّة، وقد اجتمع لقتله ثلاثون ألفاً، كلّ منهم يتقرّب بقتله إلى الله سبحانه، فكيف يقال : لا تجتمع أُمّتي على خطأ ؟ !

أضف إلى ذلك أنّ المراد من اجتماع الأُمّة ما كان فيهم المعصوم عليه السلام فحينئذٍ لا تجتمع على خطأ لوجود المعصوم معهم.

واستدلّوا على حجّية (الشورى) بآيتها في قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾[1]، وقالوا بأنّ هذه الآية تدلّ على أنّ الرأي الذي يتّخذه المسلمون بالشورى بينهم حجّة شرعيّة.

إذن، فالخلافة التي تتعيّن بالشورى خلافة شرعيّة، يجب على المسلمين اتباعها.

ويجاب عن هذه الآية بأنّ من الواضح أنّ هذه الآية لا تقصد حجّية الشورى في الأُمور والأحكام الشرعية الهامّة، وإنّما تقصد حسن الشورى في أُمور الدنيا، لا سيّما في قضايا الحرب، وذلك بعد ملاحظة أحكام الشريعة، فإنّ من الواضح أنّ الشورى ليست حجّة لتشريع الأحكام في الإسلام بتحليل الحرام أو بتحريم الحلال.

إذن، فحجّية الشورى خاصّة بالأُمور الدنيوية، ولا تشمل الأُمور الدينية قطّ أبداً.

وأمّا حجّية (ولاية العهد) فقد وجّهوه بأنّها حصيلة النظرة المصلحية للمسلمين من وليّ المسلمين السابق والذي كان تعيينه برأي المسلمين ومصلحتهم. إذن : فولاية العهد من مصلحة المسلمين بنظر وليّ أمرهم الذي له الاختيار في ذلك.

ويجاب عن هذا بأنّ حجّية تولية العهد إذن فرع صحّة ولاية الولي السابق على المسلمين، فإذا لم تثبت صحّة ولايته شرعاً ـ كما هو الحقّ الحقيق ـ فلا حجّية لتوليته للعهد أيضاً.

---

(١) الشورى : ٣٨.

وزبدة الكلام: بعد أن أثبتنا بطلان الطرق الثلاثة السابقة لتعيين الإمام بعد النبيّ صلى الله عليه وآله، وبطلان تدخّل اختيار الأُمّة في أمر الإمامة عقلاً ونقلاً، فلا بدّ من تعيين طريق آخر يقرّه العقل والنقل لتعيين الإمام بعد النبيّ عليه السلام ممّا لا تتدخّل فيه اختيار الأُمّة وأهواءها ونزاعاتها، حتّى يقال: منّا أمير ومنكم أمير، كما حدث في السقيفة.

والذي يطابق العقل والفطرة والأدلّة النقليّة من الآيات والروايات هو ما يقوله الإمامية في تعيين الإمام بعد النبيّ بما لا دخل للاختيار من قِبَل الأُمّة، فإنّه باعتبار ما عيّنه الله تعالى وبلّغه إلينا الرسول كحكم شرعي واجب الاتّباع، فحكم الإمامة حكم النبوّة في أصلها وإن اختلفت في بعض مقاماتها كالوحي.

الإمامة الخاصّة:

والذي تقول به الإمامية الاثنى عشرية أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يترك الأُمّة سدىً، فإنّ تركهم يتنافى مع العقل السليم، ومع غرض النبوّة، بل عيّن الأوصياء من بعده وأنّهم الخلفاء اثنى عشر كلّهم من قريش، كما في صحاح السنّة ومصنّفات الشيعة.

وإنّما أرهص النبيّ للخلفاء من بعده، فمن بدء دعوته لعشيرته الأقربين في قصّة (يوم الدار) أشار إلى الخليفة والوزير من بعده، ألا وهو أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، واستمرّ على هذا المنوال يكرّر ويردّد في كلّ مناسبة التصريح أو التلويح بتعيين ابن عمّه وزوج بنته أسد الله الغالب عليّ بن أبي طالب عليه السلام من بعده...

وكانت آخر هذه المواقف والمناسبات بتبليغ رسمي من الله سبحانه في

اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة من سنة حجّة الوداع العاشرة من الهجرة النبويّة، في منصرفه من الحجّ مع المسلمين على غدير في مفترق الطرق بعد مكّة المكرّمة وقبل المدينة المنوّرة يسمّى بـ(غدير خم) والذي نزل به جبرئيل بآية من الله تبارك وتعالى في ذلك إذ يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ ﴾[1].

فأمر رسول الله مناديه فنادى في المسلمين بالالتحاق وأمر المتقدّمين أن يرجعوا وانتظر المتأخّرين أن يلحقوا، وأمر فصنعوا له منبراً من أهداج الإبل، وكان الناس يتّقون رمضاء الهجير في وسط الظهيرة بأطراف ردائهم وأكمامهم يسحق بعضهم بعضاً من كثرة الزحام، إذ هم ـ على أقلّ ما يروى ـ زهاء مائة وخمسين ألف نسمة من مسلم ومسلمة، فرقا رسول الله المنبر وخطب خطبة بليغة، استعرض على المسلمين فيها ما تحمّله في سبيل تبليغ هذه الرسالة من المشاقّ والمتاعب وهو في كلّ ذلك يسألهم: اللهمّ هل بلّغت؟ وهم يردّدون: نعم يا رسول الله... وفي آخر خطبته نعى نفسه إلى المسلمين، ثمّ دعى بابن عمّه الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فأصعده إليه وأخذ بكفّه فرفعها حتّى بان للمسلمين بياض إبطيهما، وقال صلى الله عليه وآله: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه»، ثمّ دعا فقال صلى الله عليه وآله: «اللهمّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقّ معه حيث ما دار»، ثمّ أمر بخيمة فنصبت وأمر علياً عليه السلام فدخل الخيمة وجلس جانباً، وأخذ بطست ماء فملئت ووضعت نصفها داخل الخيمة

(١) المائدة: ٦٧.

ونصفها خارج الخيمة، وأمر الرجال أن يدخلوا على عليّ فسلّموا عليه بـإمارة المؤمنين، حيث لقّبه بهذا اللقب ذلك اليوم بعد نصبه للخلافة من بعده وأمرهم أن يبايعوه على ذلك.

ونزل جبرئيل عليه السلام بقوله تعالى:

﴿ **اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً** ﴾[1].

ولاية أمير المؤمنين عليّ عليه السلام:

«ولاية عليّ بن أبي طالب حصني، فمن دخل حصني أمن من عـذابـي» (الحديث القدسي).

انبهرت الألباب في كنه معرفة الإمام علي عليه السلام، وحارت العقول في القول عن سيرة وصيّ رسول ربّ العالمين، ومن أين يبدأ الكلام عنه وكيف؟

فهو الذي هزم الأعداء والأحزاب وحده، ولا ننسى موقفه البـطولي أمـام حشود الجميع عندما برز لعمرو بن ودّ (يوم الخندق) والذي يعتبر ـ ابن ودّ ـ من صناديد الأبطال وفرسان المعارك الضارية، وبضربة من علي أودت بابن ودّ إلى درك جهنم، وعلي ـ آنذاك ـ ابن العشرين من عمره، وقد نجى المسلمون وحقّقوا النصر المؤزّر بسيف وشجاعة علي.

و (يوم خيبر) حيث أردى مرحباً ـ رئيس اليهود وأسدهم المفترس ـ وقد هبطت معنويات اليهود بمقتل مفخرتهم (مرحب).

(١) المائدة: ٣.

وتوالت الانتصارات الإسلامية بحسام علي، وكتب للإسلام البقاء بصمصام وصرامة علي.

وتعال إلى بلاغة علي عليه السلام لتجد عيون الفصاحة تنهل بسيل من الكلمات والسجع المفتول ببطون المعاني، وما وصل إلينا الندى القليل من (نهج البـلاغة) و (بهج الفصاحة) وهي قطرة مترشّحة على ضفاف أبحر كلامه.

ولنذهب إلى ألطافه وإحسانه إلى الناس وتعامله مع الفقراء والمـحتاجين وما كان يقوم أواخر الليل ويذهب إلى بيوت اليتامى والمساكين ويطعمهم على حبّ الله لا يريد منهم جزاءً ولا شكوراً.

ولنرحل إلى علمه الذي علّمه رسول الله صلى الله عليه وآله عن الله تعالى، وكيف عـلّمه ألف باب من العلوم يفتح لكلّ علم ألف علم، فهو باب مدينة علم الرسول. فهل بعد هذا العدد الهائل من العلوم وهل بعد تقواه وزهده و و ... نـتوقّف فـي اخـتياره لخلافة الرسول بلا فصل ومن بعده مباشرة؟

إنّه اختيار الله لإمامته بعد الرسول لا ترشيح الناس لخلافته.

﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ** ﴾[1].

ولنسرح في خشوعه عليه السلام إلى الله تعالى ونرى دموعه كصبابة درر تتناثر على خدّيه لتبلّ لحيته وهو منقطع في مناجاته إليه سبحانه وتنقطع أنفاسه وهـو غارق في أدعيته للبارئ الخالق منادياً ربّاه والله ما عـبدتك خـوفاً مـن نـارك ولا طمعاً في جنّتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك...

وشاء الله أن يتوّج مسيرته التي بذلها له عزّ وجلّ بوسام الشهادة في بيت الله

(١) القصص: ٦٨.

(مسجد الكوفة) في شهر الله (شهر رمضان) كما كانت بدايته في بيت الله (ولادته في جوف الكعبة) لتبتلّ لحيته بخضاب دمه العبق الطاهر.

ولعليّ مميّزات عديدة وصفات حميدة، يقف الناس قبالها حيارى، ويشمل العاشقين هائمين سكارى؛ لعظم وقداسة وجلال مقامه الشامخ فهو: المعصوم بإرادة الله:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾[1].

وجعل ولايته حصانة في الدنيا من الارتياب وحصن في الآخرة من العذاب، وفّقنا الله للدخول بحصنه الحصين والأمن من العذاب المهين.

آية الولاية:

جاء جماعة من اليهود إلى المدينة المنوّرة، فأسلموا على يد النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله، ثمّ سألوه عن الوليّ والوصيّ من بعده، فانتظر النبيّ وحي السماء، فنزل عليه الأمين جبرئيل بآية الولاية في قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾[2].

فعلم النبيّ بأنّ الآية تشير إلى حادثة وقعت بين المسلمين، لا بدّ من الاطلاع عليها، فقام باليهود الذين أسلموا إلى مسجده الشريف، وعلى باب المسجد التقى بالسائل وبيده خاتم من فضّة، فسأله النبيّ صلى الله عليه وآله: ما بالكَ،

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) المائدة: ٥٥.

وما أمرك؟ فقال السائل: يا رسول، دخلت المسجد أسأل الناس فلم يعطني أحد شيئاً، حتّى أشار ذلك الفتى وهو في صلاته ـ وأشار إلى عليّ عليه السلام ـ إلى خاتمه وهو راكع، فمضيت إليه فناولني خنصره وفيه الخاتم، فأخرجته من يده، هذا الخاتم، فعلم النبيّ صلى الله عليه وآله أنّ الآية نزلت في عليّ عليه السلام، فتلى على الناس الآية، وقال: «إنّ هذا وليّي وخليفتي من بعدي».

ومثل هذه الأخبار والحوادث كثيرة في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله، فكان ـ من باب الإرهاصات مقدمة للخلافة والإمامة من بعده ـ دائماً ينوّه بأمير المؤمنين عليّ عليه السلام وخلافته بلا فصل للنبيّ صلى الله عليه وآله، وكان يذكر مناقبه وفضائله وأنّه نفسه ومنه وهو من علي، وأنّه أقضى الناس وأعلمهم وأتقاهم وأسبقهم للإسلام.

وما أكثر النصوص النبويّة الدالّة على إمامته وخلافته بلا فصل لرسول الله: كحديث الطير، وحديث المنزلة، وحديث الإخاء، وغيرها، المرويّة كلّها عند الفريقين السنّة والشيعة.

ففي حديث المنزلة قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا عليّ، أنت منّي بمنزلة هارون من موسى، إلّا أنّه لا نبيّ بعدي»، وهذا حديث متواتر يرويه السنّة والشيعة، وهو يثبت بوضوح كلّ ما كان للنبيّ فهو لعليّ عليه السلام ما عدا النبوّة فقط.

إذن، فالرئاسة العامّة التي كانت للنبيّ الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله بمقتضى النبوّة تكون لعليّ عليه السلام من بعده بمقتضى الإمامة.

وقد قال النبيّ هذا الحديث الشريف بمسمع عدّةٍ من أصحابه، حينما اشتكى إليه عليّ عليه السلام تهريج المنافقين بتخلّفه عنه صلى الله عليه وآله في (غزوة تبوك)، حيث استخلفه على المدينة في غيابه عنها، فقال المنافقون: إنّما استخلفه على الضعفاء

والنساء والصبيان ! وأراد النبيّ أن يردّ عليهم قولهم فقال ـ كما في بعض النسخ الأُخرى ـ : ألا تحبّ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى .

حديث يوم الاثنين :

ويوم الاثنين ـ يوم الرزيّة والمصيبة ـ من الأيام الأخيرة لحياة النبيّ صلى الله عليه وآله في مرضه الذي توفّي فيه ، وكان يغشى عليه ساعة بعد ساعة من شدّة وطأة المرض ، وقد اجتمع حوله أصحابه من المهاجرين والأنصار ، وقد أذن للناس إذناً عامّاً ، ولمّا امتلأ الدار ، التفت إليهم وقال :

« إيتوني بدواة وكتف لأكتب لكم كتاباً ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي أبداً » .

وكان المسلمون قد سمعوا منه صلى الله عليه وآله من قبل هذا اليوم نفس هذا الوصف الخاصّ في حديث الثقلين في مواطن عديدة ، في أكثر من مرّة : « لن تضلّوا بعدي أبداً » .

لذلك شعر المغرضون السياسيون الحزبيون من أتباع حزب قريش الذي تأسّست نواته في مكّة في المشركين ولا يزال ، فأحسّ بخطورة الموقف وأنّ الأمر الإلهي والنبوي سيكون ضدّهم وضدّ مآربهم ومقاصدهم ، وأنّ النبيّ سيوصي ـ في آخر حياته رسماً وكتابةً لا يمكن إنكارها ـ بأهل بيته وبإمامة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام للخلافة من بعده ، وشعروا من ذلك بالخطر الداهم ، ولذلك قام قائمهم (عمر بن الخطّاب) يحاول منع إيصال الدواة والكتف إلى النبيّ الأعظم محمّد صلى الله عليه وآله ، فقال لمن قام يأتي بهما : « اجلس ، فإنّ الرجل ليهجر ! ! قد غلبه المرض » ، وقد خالف قوله تعالى :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾[1] .

فتنازع القوم في ما بينهم على ذلك ، منهم من يقول : اسمعوا لنبيّكم وأطيعوا ، ومنهم من يقول : القول ما قال عمر ؟ ! ! وكان قد غشي على النبيّ حينئذٍ ، فلمّا أفاق من غشوته تقدّم إليه جماعة من مخلصي أصحابه يقولون : يا رسول الله ، نأتيك بالدواة والكتف ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « أبعد نزاعكم هذا ؟ ! قوموا ، لا ينبغي عند نبيٍّ نزاع » ، فتفرّق القوم أيدي سبأ وهم يلعن بعضهم بعضاً .

وكان ابن عباس يبكي ويقول : الرزيّة الرزيّة يوم الاثنين .

ولا زالت الرزيّة تحوط المسلمين ، حتّى يأتي الله بفرجه ، ويظهر المهدي من آل محمّد عليهم السلام ، ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً .

فحديث يوم الاثنين كانت آخر محاولة من النبيّ المختار صلى الله عليه وآله لتقرير الخلافة والإمامة من بعده لوصيّه وابن عمّه من بعده الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومن ثمّ أهل بيته عترة المصطفى الأئمة المعصومون الهداة عليهم السلام والصلوات إلى يوم المعاد .

إمامة سائر الأئمة الأطهار عليهم السلام :

ثبت بما سبق من الأدلّة إمامة الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام من بعد النبيّ بلا فصل ، وبقي علينا الآن ذكر أدلّة إمامة سائر الأئمة الاثني عشر عليهم السلام ، الذين أخبر بهم النبيّ ، وأنّهم بعدد نقباء بني إسرائيل وحواري عيسى بن مريم .

والدليل لإثبات إمامتهم من بعد الإمام أمير المؤمنين ينقسم إلى قسمين :

---

(١) النجم : ٣ ـ ٤ .

الأوّل : الأدلّة العامّة، التي تدلّ على إمامة الجميع من حيث المجموع.

الثاني : الأدلّة الخاصّة، حيث تختصّ بإمامة كلّ واحد واحد منهم.

أمّا الأدلّة العامّة، فكما أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يتحيّن الفرص للإشارة أو التلويح أو التصريح بإمامة عليّ عليه السلام من بعده، كذلك كان بين كلّ آونة وأُخرى يتحيّن الأوقات ليشير أو يصرّح بإمامة الأئمة الاثني عشر من بعده بأسمائهم وأسماء آبائهم وأوصافهم الخَلقية والخُلقية.

فكان أحياناً يقول صلى الله عليه وآله :

«الأئمة من بعدي اثنا عشر كلّهم من قريش».

وأحياناً يصرّح بأسمائهم جميعاً واحداً فواحداً، وأحياناً أُخرى يصرّح بإمامة بعضهم فيقول :

«الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا».

وأحياناً يصرّح لجابر بن عبد الله الأنصاري، الصحابي الجليل، فيقول :

«إنّك لتدرك من ولدي من اسمه اسمي، وشمائله شمائلي، يبقر العلم بقراً».

وأحياناً يلقّب جعفر بن محمّد بالصادق، فيسئل عن سبب تعيين هذا اللقب له، فيخبرهم بأنّه سيولد من ولده رجل اسمه جعفر يدّعي الإمامة كذباً، وهناك بالإضافة إلى هذا كلّه إخبار بظهور صاحب الزمان الإمام الثاني عشر الحجّة بن الحسن العسكري عليه الصلاة والسلام، وفيها التصريح بأنّه من ولد الأئمة من ذرّية الإمام الحسين عليه السلام.

ويجمعها جميعاً حديث صحيفة النور في الصفحة السماوية الزبرجديّة الخضراء والتي تلقّب بـ(مصحف فاطمة عليها السلام)، إذ أنّ رسول الله أملاها على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فكتبها لفاطمة سلام الله عليها، والتي يرويها بالإضافة

إلى طرقنا الخاصّة عن الأئمة عليهم السلام جابر بن عبد الله الأنصاري في طرق العامّة أيضاً.

هذا بالإضافة إلى وجود المعاجز والكرامات وخوارق العادات لكلّ واحد منهم مع ادّعائهم الإمامة الحقّ، وصدق قولهم بظهور المعاجز على أيديهم.

وأمّا الأدلّة الخاصّة : وهي التي تختصّ بإمامة كلّ واحد منهم، وهذا أيضاً ينقسم إلى قسمين :

١ ـ النصوص.

٢ ـ المعجزات.

والنصّ إنّما هو من كلّ إمام سابق على الإمام اللاحق، والتي جمعها المحدّث الكبير الشيخ الحرّ العاملي في كتابه القيّم (إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات)، وفي كثير من كتب الفريقين ـ السنّة والشيعة ـ فراجع، والله الهادي للصواب، وهل بعد الحقّ إلّا الضلال.

المعاد

الأصل الخامس من أُصول الدين هو المعاد يوم القيامة، وقد سبق في صفات الله الثبوتيّة إثبات صفة العدالة لله تعالى، ونفي صفة الظلم عنه سبحانه، ثمّ رتّبنا على عدالة الله ولطفه وحكمته وغناه، بعثة الأنبياء والمرسلين، وألحقنا بذلك تعيين الأوصياء للأنبياء والأئمة الهداة الأطهار للرسول المختار محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله.

والآن نريد أن نرتّب على عدالة الله أيضاً: إثبات لزوم وجود يوم بعد هذه الدنيا، ينتصف فيه من الظالم للمظلوم، يوم الثواب والعقاب.

فنقول: بما أنّ الله عادل وليس بظلّام للعبيد، فبمقتضى عدله تعالى لا بدّ أن يعيّن هناك يوماً بعد هذه الدنيا ليأخذ حقّ المظلوم العاجز من الظالم المتهتّك، كما ويثيب فيه المحسن والمطيع، ويعاقب فيه المسيء والمذنب، وهذا ما يحكم به العقل السليم والفطرة الواعية والوجدان الحيّ، لا ينكره إلّا من كان أعمى القلب، غلبته الأهواء والشهوات، فأنكر يوم المعاد.

كما ويدلّ عليه الأدلّة النقليّة المتواترة في جميع الأديان السماوية من الإبراهيمية واليهودية والنصرانية والصابئة والإسلام، في صحف نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد عليهم السلام، من الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن الكريم، وفي أحاديث الأنبياء والأوصياء ونبيّنا محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله وعترته الأئمة الهادين من بعده.

المعادالجسماني:

إذن، فقد دلّت الأدلّة العقلية والنقليّة القاطعة على تحقّق المعاد بما لا يقبل الشكّ والجدل... وإنّما شكّك جماعة من الحكماءوالفلاسفة في المعاد الجسماني من حيث كونه إعادةً للمعدوم، وعندهم مستحيل، والحال الموت ليس من الإعدام، بل نقلة من حياة إلى حياة أُخرى، رحلة من الدنيا إلى الآخرة. فإنّ الله سبحانه كما خلق الحياة خلق الموت:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[1].

فالحقّ الحقيق، إنّه بعد أن دلّ الدليل العقلي القاطع على وجوب تحقّق المعاد وضرورته دلّت الأدلّة النقليّة المتواترة المفيدة للعلم والقطع على تحقّقه، وأنّه معاد جسماني، وليس روحاني فحسب، بل تعاد الأجسام وهذه الأعيان لهذه الأجساد المشخّصة في الدنيا، كما أعاد الله الطيور لخليله إبراهيم عليه السلام. فلا مجال للتشكيك في ذلك بعد التسليم والإيمان بقدرة الله تعالى المطلقة، التي تتعلّق بجميع الممكنات على حدٍّ سواء، وقد أخبرنا الله تعالى في آياته وعلى لسان رسله بإمكان المعاد الجسماني ووقوعه وتحقّقه القطعي، اللهمّ إلّا أن نشكّ في قدرة الله تعالى المطلقة، أو صدق إخباره بآياته وعلى لسان رسله بتحقّق ذلك اليوم الموعود... ومعاذ الله من ذلك. فليس (إعادة المعدوم) أعظم على الله من خلقه (إيجاده من العدم).

---

(١) الملك: ١ ـ ٢.

شبهة إعادة المعدوم، وجوابها :

وهناك في الآيات والأحاديث والروايات الشريفة ما يتعرّض لهذه الشبهة (شبهة إعادة المعدوم) بالخصوص، فمن الآيات القرآنية مثلاً، قوله تعالى على لسان المشكّك :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[1].

وقال تعالى فيما اقتصّ من خبر إبراهيم على نبيّنا وآله وعليه السلام عن لسانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأتِينَكَ سَعْياً ﴾[2].

وقال تعالى فيما اقتصّ من خبر عزير :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾[3].

(١) يس : ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) البقرة : ٢٦٠.

(٣) البقرة : ٢٥٩.

ففي هذه الآيات الكريمة دلّل الله تعالى على إمكان المعاد الجسماني بوقوعه على الطيور الأربع لإبراهيم الخليل عليه السلام، وعلى عزير وحماره.

شبهة الآكل والمأكول، وجوابها :

ففي هذه الآيات إجابة عملية أُخرى على شبهة أُخرى في المعاد الجسماني وهي شبهة (الآكل والمأكول) وتفسيرها أنّ هذه الأجساد تبلى وتفنى وتتفسّخ وينخر عظامها وتكون رميماً ويتداخل أجزاء هذه الأجساد في غيرها، وبصريح القول يأكل بعضها بعضاً بعد الموت، حيث تكون تراباً ثمّ تنتقل إلى النباتات ثمّ إلى الحيوانات ثمّ إلى الإنسان مرّة أُخرى، فكيف تعاد هذه الأجساد ؟

فأجاب الله تعالى في هذه الآيات على هذه الشبهة بالذات، إذ مثّل الله لنا إعادة هذه الأجساد الآكلة والمأكولة وتمييز بعضها عن بعض بإحياء الطيور الأربع لإبراهيم عليه السلام، بعد أن تداخل أجزاؤها بعضها في بعض، فكذلك يعيد الله هذه الأجساد بما فيها الآكلة والمأكولة، ويميّزها بعضها عن بعض.

وهناك أجوبة أُخرى لم نتعرّض لها طلباً للاختصار.

تفاصيل البرزخ والمعاد :

قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم :

﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[1].

والبرزخ في اللغة العربيّة تعني : الحدّ الفاصل بين شيئين، كما في قوله

(١) المؤمنون : ١٠٠.

تعالى:

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ ﴾[1].

أي بين البحرين حدّ فاصل لا يبغي أحدهما على الآخر فيه.

والبرزخ في الاصطلاح العقائدي في الإسلام، هو الحدّ الفاصل الخاصّ بين الحياة الأُولى (الدنيا) وبين الآخرة التي هي دار الحيوان، ويسمّى البرزخ بعالم القبر أيضاً.

فالإنسان بعد أن يموت يحشر في عالم روحاني، برزخ بين الروح والجسد في جسم مثالي شبحي برزخ بين الجسد والروح، كالجسد الذي يحسّ الإنسان بنعيمه أو عذابه في الأحلام والرؤيا في عالم الدنيا.

وإنّما يحاسب الإنسان في عالم البرزخ على الإيمان والكفر دون الأعمال، وكذلك إنّما يحاسب من المؤمنين من محض الإيمان محضاً، ومن الكافرين من محض الكفر محضاً، وأمّا سائر الناس من المسلمين والكافرين إنّما ميعادهم يوم القيامة.

والقبر إمّا روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيران.

وأمّا تفاصيل الحشر والنشر وتطاير الكتب والمرور على الصراط والمحاسبة عند الميزان حساباً وكتاباً، فثواباً أو عقاباً، وكذلك تفاصيل طبقات الجنان والنيران، وتفاصيل حوض الكوثر والشفاعة والخلود في الجنّة أو النار... فالواجب علينا من الاعتقاد فيها ليس التفصيل، وإنّما الواجب هو الاعتقاد الإجمالي بصحّة ما جاء به رسول الله والأئمة عليهم السلام.

(١) الرحمن: ٢٠.

وعليكم بدعاء (العديلة) كما جاء في مفاتيح الجنان لخاتم المحدّثين الشيخ عباس القمّي قدس سره، فإنّه وإن كان من إنشاء العلماء، إلّا أنّ فيه الأُصول الخمسة، وشيء من التفصيل والإقرار بأنّ الموت حقّ، والقبر حقّ، وسؤال منكر ونكير حقّ، والجنّة والنار حقّ، والوعد والعيد بهما حقّ.

ثمّ يستحبّ أن يقرأ في تعقيب كلّ صلاة مفروضة هذا الدعاء الشريف، حتّى يثبت المؤمن على إيمانه ولا يموت إلّا مسلماً مؤمناً، ولا يكون إيمانه عارية ومستودعاً عنده ـ والعياذ بالله ـ بل يموت على دين الإسلام والإيمان بالله ورسوله وولاية الأئمة الأطهار عليهم السلام.

«بسم الله الرحمن الرحيم، رضيتُ باللهِ ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّدٍ صلى الله عليه وآله نبيّاً، وبعليٍّ إماماً، وبالحسن والحسين وعليّ ومحمّد وجعفر وموسى وعليّ ومحمّد وعليّ والحسن والخلف الصالح عليهم السلام أئمّةً وسادةً وقادةً بهم أتولّى ومن أعدائهم أتبرّأ».

ثمّ تقول ثلاث مرّات:

«اللهمّ إنّي أسألك العفو والعافية والمعافاة في الدنيا والآخرة»[1].

ومن الأدعية الواردة أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام تقول بعد كلّ صلاة واجبة:

«رضيتُ بالله ربّاً، وبمحمّدٍ صلى الله عليه وآله نبيّاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن كتاباً، وبالكعبة قبلةً، وبعليّ وليّاً وإماماً، وبالحسن والحسين وعليّ بن الحسين ومحمّد ابن عليّ وجعفر بن محمّد وموسى بن جعفر وعليّ بن موسى ومحمّد بن عليّ

(١) مفاتيح الجنان: ١٦، التعقيبات المشتركة.

وعليّ بن محمّد والحسن بن عليّ والحجّة بن الحسن صلوات الله عـليهم أئـمةً، اللهمّ إنّي رضيت بهم أئمّة فارضني لهم إنّك على كلّ شيءٍ قدير»[١].

هذا تمام الكلام في أُصول الدين باختصارٍ وإجمال.

وأمّا الأخلاق في الإسلام فيأتينا في القسم الثاني إن شاء الله تعالى، والله خير ناصرٍ ومعين.

القسم الثاني

الأخلاق في الإسلام

(١) المصدر نفسه: ٨٦، دعاء العديلة.

الأخلاق في الإسلام

يبتني الإسلام وثقافته الدينية ـ بعد المعرفة والتوحيد ولوازمه ـ على أُسس وأقسام ثلاث :

١ ـ الأحكام.

٢ ـ العبادات.

٣ ـ الأخلاقيات.

ولا يخفى أنّ القسم الأوّل والثاني يبحث في الفقه الإسلامي وفلسفته، والمقصود هو القسم الثالث.

وقد حاز الأخلاق في الإسلام مرتبة عظيمة ومنزلة رفيعة، ومقاماً شامخاً واهتماماً بليغاً، حتّى قال الصادع بالرسالة النبيّ الأعظم محمّد ﷺ : «إنّما بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق»، وكان عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى والأُسوة العليا في الأخلاق والمكارم، حتّى وصفه ربّه في قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُـلُقٍ عَـظِيمٍ ﴾[1].

---

(١) القلم : ٤.

وكان خلقه القرآن الكريم.

وقد ورد في عظمة الأخلاق من نبيّ الإسلام وأئمّته بالحقّ، نصوص كثيرة وأحاديث شريفة، قد خُصّص لها قسم كبير من كتب الأخبار والأحاديث والفقه الإسلامي وكتب الأخلاق والعرفان والسير والسلوك.

وقد تكلّم علماء المسلمين وأُدبائهم في الأخلاق كثيراً، فمنهم من يقول:

وإنّما الأُمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال آخر:

إنّ المكارم أخلاقٌ مطهّرةٌ فالعلم أوّلها والحلم ثانيها

وقال آخر:

مكارم الأخلاق في ثلاثة منحصرة

لين الكلام والسخاء والعفو عند المقدرة

وغير ذلك من الأشعار والأبيات التي هي من الحكمة، وترجمت لنا الآيات والروايات في سلك النظم والنثر بأُسلوب بديع ورائع.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«مكارم الدنيا والآخرة في ثلاث: أن تعفو عمّن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك».

ولا يخفى أنّ الظلم على نحوين: تارة ظلم شخصي، وأُخرى ظلم اجتماعي.

فمن الأوّل: أن تعفو عمّن ظلمك لا سيّما عند المقدرة، فإنّ العفو عند المقدرة من مكارم الأخلاق وفيها لذّة روحيّة لا توصف، وأمّا الظالم في نطاق الظلم الاجتماعي فإنّه يحارب ويكافح لإزالة الظلم عن المجتمع وحكومة العدالة

الاجتماعية والقسط الإسلامي، ومن هذا المنطلق يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في آخر وصاياه لولديه سيّدي شباب أهل الجنّة الحسن والحسين عليهما السلام:

«كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً».

فلا بدّ من مخاصمة الظالم حينئذٍ وقطع جذور الظلم من المجتمع الإسلامي، فتدبّر.

الهجرة للعلم والإيمان

قال الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾[1].

اعلم أنّ الهجرة شرّعت وطبّقت في الإسلام على المسلمين الأوائل مرّتين :

الأُولى : الهجرة إلى الحبشة بقيادة جعفر الطيّار بن أبي طالب رضي الله عنه في مجموعة من المؤمنين والمؤمنات هاجروا بإذن من رسول الله من مكّة المكرّمة إلى أرض الحبشة (السودان) ليأمنوا أذى المشركين من قريش.

الثانية : الهجرة النبويّة الشريفة من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة بإذن وأمر من الله سبحانه هاجر النبيّ الأعظم محمّد صلى الله عليه وآله ثمّ ابن عمّه وخليفته الإمام عليّ بن أبي طالب مع الفواطم.

وكان الغرض من الهجرة الأُولى : حفظ الإيمان، وفي الثانية : حفظ الإيمان والتكامل فيه، فإنّها كانت هجرة مقدّسة إلى مدينة النبيّ صلى الله عليه وآله مهبط الوحي وعاصمة الإسلام آنذاك.

ومن هنا نقف على حقيقة الهجرة والمقصود منها في الإسلام، بأنّ المطلوب هو حفظ الإيمان والتكامل فيه، وأي عمل يقصد به التوصّل إلى حفظ الإيمان وكماله فهو عمل مطلوب شرعاً ومحبّذ في المفهوم الإسلامي ومحبوب عند الله

(١) النساء : ١٠٠.

ورسوله ومندوب إليه في الشريعة الإسلامية السمحاء.

ولمّا كان العلم في الإسلام عظيماً، وإنّه ممّا يتوسّل به إلى فهم الإسلام ودركه وحفظه والتكامل فيه وتطوّره والكمال في الإيمان به، بل من الثابت أنّ العلوم الإسلامية هي السبيل الوحيد لاستمرار مفاهيم هذه الرسالة السماوية السمحاء بين البشريّة، لذلك كان العلم في الإسلام فريضة على كلّ مسلم ومسلمة، وإنّ طلبه والهجرة إليه للتحصيل عليه إنّما هي في الحقيقة هجرة إلى الله ورسوله ودينه :

﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾[1].

وكان الموت حينئذٍ في سبيل تحصيله يعدّ من الشهادة والسعادة، وقد وقع أجره وثوابه على الله سبحانه.

ولذلك ورد في كثير من الروايات الشريفة :

«من مات في طلب العلم مات شهيداً».

الغاية من طلب العلم :

قال الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[2].

لا يخفى أنّ الإسلام العظيم بمصدره التشريعي والثقافي أي القرآن الكريم والسنّة الشريفة المتمثّلة بقول المعصوم وفعله وتقريره، لقد اهتمّ غاية الاهتمام

(١) التوبة : ١٢٢.

(٢) المجادلة : ١١.

بطلب العلم النافع والعمل الصالح، وأنّ السعادة في الدنيا والآخرة إنّما هي في ظلال العلم، فما أكثر الآيات الكريمة والروايات الشريفة التي تنصّ على ذلك، وأنّ قيمة كلّ امرئ ما يحسنه، فهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، بل يرفع الله الذين أُوتوا العلم درجات حتّى كانوا في مقام الشهادة بالوحدانيّة الإلهيّة في صفّ الله سبحانه في قوله:

﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ ﴾[1].

إلّا أنّه هنا سؤال يطرح نفسه أنّه ما الغاية من العلم وطلبه في الإسلام.

الجواب: إنّ الغاية أن يكون العلم لله وفي الله عزّ وجلّ، فمن تعلّم لله وعمل لله وعلّم لله دعي في ملكوت السماوات عظيماً، وأنّه يصلّي عليه كلّ شيء ويستغفر له كلّ شيء حتّى الحيتان في البحر، وأنّ الملائكة تضع أجنحتها تحت قدميه رضي به.

وهناك نصوص كثيرة تنكر على من يطلب العلم لغير وجه الله سبحانه، يطلبه للدنيا وما فيها، ليجادل به العلماء أو يماري به السفهاء ويطلب به حطام الدنيا ويترأّس على الناس وينال من أموال الأغنياء أو عطايا الملوك والسلاطين والدولة والحكومة، أو غير ذلك من الأغراض الدنيويّة.

وقد ورد في الحديث الشريف:

«من طلب العلم ليجادل به العلماء أو يماري به السفهاء... أكبّه الله على منخريه في نار جهنّم».

فأمثال هذه الرواية الشريفة تشدّد النكير على من لا يطلب العلم لله وفي

(١) آل عمران: ١٨.

الله، خالصاً لوجهه، بل يطلبه للجدال والمراء والتظاهر والتطاول على الآخرين وإظهار فضله على الناس ـ والعياذ بالله ـ.

فلا بدّ أن يكون طلب العلم بدايته ونهايته لله عزّ وجلّ:

﴿ قُلْ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾[1].

﴿ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾[2].

وورد في الحديث الشريف:

«أوّل العلم معرفة الجبّار، وآخر العلم تفويض الأمر إليه».

فأوّله هو الله، وآخره هو الله، فالعلم سير وقوس نزولي وصعودي منه وإليه عزّ وجلّ.

فالحديث النبوي الشريف يؤكّد على أُمّته أن يكون افتتاحهم بطلب العلم في سبيل معرفة الخالق العظيم وأن يعرفه من نفسه، فمن عرف نفسه فقد عرف ربّه، كما يعرفه بالآيات الآفاقيّة والأنفسيّة، وأن يكون الغاية بعد ذلك أن يحصل لهم من أثر معرفة الله سبحانه أن يفوّضوا أمرهم إليه ويتوكّلوا عليه، وعلى الله فليتوكّل المؤمنون في طلب العلم وغايته وفي العمل الصالح.

المداومة في تحصيل العلم:

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«من تساوى يوماه فهو مغبون».

(١) الأنعام: ٩١.

(٢) فصّلت: ٣٠.

هكذا يقرّر لنا إمامنا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، التأكيد على السعي الدائب والعمل المتواصل في سبيل تحسين أوضاعنا وأعمالنا وأحوالنا يوماً بعد يوم، وأن نكون في تطوّر وازدهار في كلّ حقول الحياة على الصعيدين الفردي والاجتماعي، فنحاول دائماً التغيير نحو الأفضل والأتمّ والأحسن في سلوكنا ومعاشنا ومعادنا، ونفوز بسعادة الدارين، وحسنة الدنيا وحسنة الآخرة: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾[1].

فنحاول أن لا ندع أيّامنا تتساوى من حيث أحوالنا الخاصّة والعامّة.

وهذا يهمّ طالب العلوم الدينية في حوزاتنا العلمية بنحو خاصّ، فإنّه ينبغي بل يلزم أن يسعى الطالب للسير المتواصل والدؤوب في سبيل تحصيل العلوم من المهد إلى اللحد، أي إلى آخر لحظة من حياته، ولو بخوض اللجج وسفك المهج، وإن كان العلم في الصين، فلا بدّ من السعي وبذل الجهود في زيادة العلم النافع والعمل الصالح والمعارف الإسلامية، كما يسعى في نشر العلوم والفنون الإسلامية، وما تعلّمه من المعارف الإلهيّة والتعاليم السماوية بين أفراد الأُمّة، وأن يسعى لئلّا يخرج قيد شعرة عن الخطّ المرسوم له من قبل الشارع المقدّس، ولا يحيد عن الغاية المعيّنة له ولا لحظة، فإذا حاول وفعل كلّ هذا وأتعب نفسه في شبابه فإنّه سيستريح في شيبته كما يشيبه الله في دنياه وآخرته، وسوف يسير في طريق الهدى إلى الأمام ويتزوّد كلّ يوم أحسن ما كان يتزوّده بالأمس، لأنّه يدري أنّ من تساوى يوماه فهو مغبون، ومن كان أمسه خير من يومه فهو ملعون وبعيد عن الرحمة الإلهيّة، والفائز والناجح من كان يومه خير من أمسه.

(١) البقرة: ٢٠١.

الحلم

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«ما شيب شيء بشيء أفضل من علم بحلم».

نفهم من هذا الحديث الشريف الوارد عن إمامنا الباقر محمّد بن عليّ عليهما السلام أنّ العلم في الإسلام ينبغي له أن يمتزج بالحلم، وهذا يعني أنّ العالم من شيعة أهل البيت عليهم السلام ينبغي له أن يتخلّق بهذا الخلق العظيم، أن يكون حليماً صبوراً، حتّى من شتمه يستغفر له قائلاً: إن كنت الذي قلته يوجد فيّ، فأستغفر الله لي، وإن لم يوجد فيّ فأستغفر الله لك، وإذا قال له أحد: إن قلت واحدة تسمع منّي عشراً، فمن الحلم أن تقول له: ولكن لو قلت لي عشرة فلا تسمع منّي واحدة.

ومن كان هكذا حلمه مع ما يعلم من العلوم والمعارف الشرعيّة، فإنّه يبلغ الغاية من السعادة، ويستطيع أن يبلغ بعلمه وحلمه إلى الغاية المنشودة، من البلاغ والإبلاغ ليستضيء الناس به، أمّا لو كان عالماً غير حليم فإنّه لا يستطيع أن يبلغ بعلمه إلى الغاية المطلوبة والمقصودة منه، ولم يتمكّن من إبلاغ الشريعة السمحة إلى المتشرّعين والمكلّفين، فكان في علمه هذا من غير أثر، ويكون كالشجر بلا ثمر، وليل بلا قمر، فتذهب أيّام حياته هدراً.

ولمّا كان الحلم هو الجناح الثاني للعالم ليحلّق بعلمه وحلمه إلى آفاق المكارم والفضائل والدرجات العلى، ولمّا كان الحلم ممّا يبلغ بالعلم إلى الغاية المقصودة منه، فقد ورد في الآيات والأحاديث الشريفة عن النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وعترته الأئمة الأطهار عليهم السلام كثير من الحثّ والترغيب عليه، حتّى أنّه ورد عن

الإمام الصادق عليه السلام التأكيد عليه، وأنّه إذا لم يكن حليماً فليتحلّم، أي يلقي بنفسه في الحلم حتّى يصل إليه، وهذا من أُسلوب الأئمة عليهم السلام في التهذيب والأخلاق، فمن لم يكن زاهداً فليتزهّد حتّى يصل إلى الزهد، وهكذا من لم يكن حليماً فليتحلّم.

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«كفى بالحلم ناصراً، وإذا لم تكن حليماً فتحلّم».

والتحلّم هو التشبّه بالحلماء والتصبّر عليه في سبيل التمرين لأجل التخلّق به فهو مصدر من باب (التفعُّل) للمطاوعة لاتّخاذ مصدر الشيء بادّعاءٍ إن لم يكن فيه، فالمؤمن حقّاً أميره العلم ووزيره الحلم.

الإخلاص

قال سيّد الوصيّين أمير المؤمنين عليّ عليه السلام:

«أخلِص تَنَل».

وفي الحديث الشريف:

«من أخلص لله أربعين يوماً فجّر الله ينابيع الحكمة من قلبه».

من جملة الفضائل والمكارم والصفات الحسنة التي يجب على كلّ مسلم ومسلمة أن يتخلّق بها في أعماله وسائر علاقاته مع ربّه ومع الناس وارتباطاته بصورة عامّة في السلوك العامّ سواء مع ربّه سبحانه أو مع العباد، هو الإخلاص في كلّ عمل يعمله، وفي كلّ قول يقوله، وكلّ خدمة يبذلها ويقدّمها للمجتمع أو لفرد من أفراده.

ومعنى الإخلاص أن يكون العمل خالصاً من أيّ شوب يشوبه ويزري به، فالذي يعبد الله عزّ وجلّ يجب أن يكون مخلصاً في عبادته، فإنّ الكلم الطيّب والعمل الصالح أي الخالص يصعد إلى الله عزّ وجلّ، فلا بدّ أن يعمل لوجه الله ولقربه إليه سبحانه، لا لغاية أُخرى مادّية أو معنويّة. والطالب الذي يدرس يجب أن يقصد في دراسته وجه الله عزّ وجلّ، أي لغاية التقرّب إليه عن طريق يعلّم الناس ويرشدهم فيقوم بالمسؤولية ومهمّاتها قربةً إلى الله جلّ جلاله، ولا يريد جزاءً ولا شكوراً من أحد إلّا من ربّه، فإنّه الشاكر عزّ وجلّ، والشكور لا يضيع عمل عامل من ذكرٍ أو أُنثى، فإنّه يتقبّل ما كان لوجهه خالصاً، وأمّا الذي فيه الشرك، فإنّه يقول عزّ وجلّ: إنا خير شريكين، ما كان لي ولغيري فأدفعه كلّه إلى

غيري، أي لا يقبل إلّا الخالص لوجهه، فلا يشرك طالب العلم مع الله سبحانه غيره بأن يدرس من أجل الحصول على وجاهة أو مقام أو رياسة أو مال أو ثروة أو منصب عالٍ في الدولة والحكومة أو يكسب ثقة الناس واعتمادهم عليه أو لغايات دنيوية أُخرى، وكذلك المعلّم يجب أن يكون في تعليمه وتدريسه وتربيته مخلصاً لله سبحانه، فيقصد أن يربّي طلّاباً بأحسن تربية إسلامية يتمكّنون بها من تهذيب أنفسهم وتهذيب الناس وتعليمهم. وكذلك الذي يبذل للناس خدمة اجتماعية أو مشروع اجتماعي فيبني داراً للفقراء أو مستشفى للمرضى أو جسراً للعابرين أو مدرسة للمتعلّمين أو أيّ شيء آخر أمثال ذلك كبناء المساجد والحسينيات والمراكز الثقافية العامّة ونحوها، فإنّه يجب أن يسعى أن يكون في نواياه وفي عمله خالصاً لله عزّ وجلّ.

وعندما يتوفّر شرط الإخلاص في كلّ عمل يعمله الإنسان فإنّه يكون من طائفة المخلصين الذين لا يتمكّن الشيطان من إغوائهم، فإنّه حلف بعزّة الله ليغوي الناس أجمعين إلّا عباد الله المخلصين، الذين كثرت الآيات والروايات في حقّهم ومدحهم، وحينئذٍ ينمو عمله ويتزايد في الدنيا والآخرة كما قال عليه السلام: «ما كان لله ينمو»، كما أنّه يستحقّ عليه الأجر والثواب العظيم في الآخرة.

وأمّا إذا لم يتوفّر فيه هذا الشرط (الإخلاص) فإنّ العمل سيكون غير كامل وكأنّه عمل مريض كما قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«آفة العمل ترك الإخلاص فيه».

فمن أراد الشموخ والعُلى فعليه بالإخلاص، أخلص تنال خير الدنيا والآخرة، وما أروع ما يقوله أمير المؤمنين فإنّه جمع كلّ الخير والسعادة الدنيوية والأُخرويّة في كلمتين: «أخلِص تَنَل».

والوصول إلى درجة المخلصين صعب مستصعب، يحتاج إلى جهد جهيد وعمل دؤوب وجهاد مستمرّ، فإنّه ورد في الأحاديث الشريفة:

«الناس كلّهم هلكى إلّا العلماء، والعلماء كلّهم هلكى إلّا العاملون، والعاملون كلّهم هلكى إلّا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم».

ويقابل الإخلاص الرياء، وإنّه في النوايا والأعمال كدبيب نملة سوداء على صخرة صلداء في ليلة ظلماء، فمن يحسّ بها، إلّا الأوحدي من الناس، وكلّ واحد هو الأوحدي من الناس وإنّه متمكّن على الإخلاص، لأنّ الله كلّفنا بذلك، ولا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها، فتكليفه بالإخلاص خير دليل على أنّه في طاقة الإنسان وقدرته، ويمكن أن يكون مخلصاً لله، ولكنّ حبّ الدنيا وما فيها تجذبه إلى الرياء والسمعة والإطراء، فلا بدّ من المجاهدة والدعاء والطلب من الله أن يجعلنا من المخلصين.

ويتأكّد وجوب الإخلاص بالنسبة إلى طالب العلم الديني الذي ينسب نفسه إلى الحجّة المنتظر الإمام الثاني عشر صاحب العصر والزمان المهدي من آل محمّد عليه وعليهم السلام وعجّل الله فرجه وسهّل مخرجه، فالذي ينسب نفسه إليه ويعتبر نفسه جندياً حقيقياً من جنود الإمام عليه السلام، لا بدّ أن يخلص في عمله وعلمه، في نيّته وسلوكه، في درسه وتدريسه، في تبليغه وتصنيفه وتأليفه وخطاباته، في سفره وحضره، في نهاره وليله، في نومه ويقظته، وأكله وتنزّهه إلى غير ذلك ممّا يقوم به في حياته. أضف إلى ذلك في عباداته وتفرّغه إلى الله سبحانه وتعالى، فيفرغ قلبه إليه ويسأله دائماً أن يوفّقه للإخلاص ويزيد في علمه النافع وعمله الصالح، ويكون وجوده منه وإليه وفيه.

قال سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾[١].

﴿ قُلْ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ﴾[٢].

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾[٣].

﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾[٤].

﴿ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[٥].

وهكذا في (سورة ١٠ آية ٢٣) و (سورة ٢١ آية ٦٥) و (سورة ٣١ آية ٣٢) وغيره.

وأمّا الأحاديث الشريفة فما أكثرها، راجع كتب الروايات كالكافي والبحار والوافي والوسائل وغيرها.

(١) الزمر: ٢.

(٢) الزمر: ١٤.

(٣) الزمر: ١١.

(٤) البقرة: ١٣٩.

(٥) الأعراف: ٢٩.

التواضع

قال مولانا وإمامنا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في وصف المتّقين كما في نهجه القيّم:

«ومشيهم التواضع».

من الواجب الأخلاقي الملقى على عاتق كلّ فرد مسلم متديّن بدين الله عزّ وجلّ، هو التواضع وخفض الجناح.

وكم لهذه الصفة الأخلاقية من آثار وبركات ومخلّفات في حياة الفرد والمجتمع، أقلّها حبّ الناس وتودّدهم، يعرفها كلّ من اتّصفت نفسه بها وتخلّقت طبيعته بهذا الخلق الرفيع.

والتواضع إحدى صفات المتّقين الواقعيين، فإنّ مشيهم في الحياة الدنيا هو التواضع أمام الله وأمام نبيّه وأمام الإمام المعصوم وأمام القادة الدينيين كمراجع التقليد والفقهاء العظام وأمام الوالدين والمعلّم والمربّي للإنسان، وأمام الصديق الوفي المتواضع مثله.

وكم هناك من أحاديث ونصوص إسلامية وردت بهذا الصدد، تحثّ على التخلّق بالتواضع، وتُرغّب المسلمين فيه.

يقول الإمام المعصوم عليه السلام: من تواضع رفعه الله، ومن تكبّر خذله الله.

نعم، هكذا يؤثّر التواضع في رفعة الإنسان عند الخالق والمخلوق، ويشعر بروحانيّة ولذّة معنويّة تفوق اللذّات المادّية، ويحسّ بروحية عالية، على العكس من الإنسان المتكبّر فإنّه يحسّ في نفسه بصغار وذلّة وعقدة الحقارة.

ولا يخفى أنّه فرق بين التواضع والذلّة، فإنّ المؤمن عزيز، إذ العزّة لله وللرسول وللمؤمنين، ولكنّ المنافقين لا يعلمون، فالمؤمن عزيز في نفسه وعزيز عند الله وعند خلقه، فالعزّة غير التكبّر، كما أنّ الذلّة غير التواضع، فإنّ المؤمن لا يعطي بيده إعطاء العبيد الأذلّاء، بل شعاره (هيهات منّا الذلّة)، فإنّه كريم ويحفظ الكرامة الإنسانية التي حباه الله، فلا يذلّ نفسه، نعم يتواضع لله، والتواضع غير الذلّة.

ثمّ التواضع على أقسام:

١ ـ التواضع أمام الله عزّ وجلّ، قال الله تعالى:

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾[1].

٢ ـ التواضع أمام النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، كما تشير إليه أيضاً الآية السابقة، ومنه أن لا يرفع الصوت في حضرته، ولا يقع التشاجر والاختلاف، ولا يقال ـ والعياذ بالله ـ إنّ الرجل ليهجر، فما ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحيٌ يوحى، فيسلّم الأمر إليه تسليماً.

٣ ـ التواضع أمام الإمام عليه السلام، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾[2].

(١) النساء: ٦٥.

(٢) المائدة: ٥٥.

وقوله تعالى:

﴿ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[1].

٤ ـ التواضع أمام القادة الدينيين، كما ورد في الحديث الشريف:

«أمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مطيعاً لمولاه مخالفاً لهواه، فعلى العوام أن يقلّدوه».

٥ ـ التواضع أمام الوالدين، لقوله تعالى:

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾[2].

٦ ـ التواضع أمام المعلّم والمربّي والأُستاذ، فقد ورد: من علّمني حرفاً صيّرني (أو ملكني) عبداً، وإنّ بركة العلم في تعظيم الأُستاذ، ومن وقّر العالم فقد وقّر ربّه.

٧ ـ التواضع أمام الحقّ، بقبوله ولو على نفسه، وأن يجلس دون مجلسه، وأن يسلّم على كلّ من يلقاه.

(١) النساء: ٥٩.

(٢) الإسراء: ٢٤.

التكبّر

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم في قصّة لقمان ينصح ولده :

﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[1].

هذه الآية الشريفة التي هي من نصائح لقمان الحكيم لابنه تدلّنا على صفة ذميمة، ألا وهي التكبّر، فقد نهى لقمان ولده أن يمشي في الأرض مرحاً يتكبّر ويتبختر على الآخرين، فإنّ الكبرياء مختصّ بذات الله سبحانه.

كما ورد في الحديث القدسي :

«الكبرياء ردائي، فمن نازعني فيه أكببته على منخريه في النار».

فإنّ الله سبحانه له الكبرياء المطلق، فهو المتكبّر لأنّه واجب الوجود لذاته المستجمع لجميع الصفات الكمالية من الصفات الجمالية الذاتية والفعلية والصفات الجلاليّة، فهو الغني بالذات العالم بكلّ شيء والقادر على كلّ شيء، فلا يحلو الكبرياء والعظمة والقداسة إلّا له عزّ وجلّ.

وأمّا الإنسان فهو المخلوق الضعيف العاجز والجاهل، وكان ظلوماً جهولاً، فأمره الله بأوامر، كما نهاه عن مناهي ليتكامل ويصل إلى كماله المنشود والمستودع في جبلته بالرحمة الإلهيّة فينال قمّة الكمال بالعلم والعبادة، فمن النواهي الإلهيّة في الأخلاقيات أنّه لن يرضى للإنسان أن يتكبّر على الخلق، إلّا

(١) لقمان : ١٨.

مع المتكبّرين، فإنّ التكبّر مع المتكبّرين تواضع.

فالكبر من جنود الجهل، ومن الصفات الذميمة، ويقابله التواضع، فإنّه من جنود العقل ومن الصفات الحميدة.

وكثير من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة تنصّ على مذمّة التكبّر وتأمر بالاجتناب عنها، لأنّ الإنسان كلّما عظم وكبر وزاد علماً وجاهاً ومالاً فإنّه لن يخرق الجبال تحت قدميه، ولن يبلغ الجبال حتّى ولو طال، فإنّ الجبال والأرض بقدرة الله الخالق العظيم الذي بيده كلّ هذه الأُمور، فلماذا يتكبّر الإنسان على الآخرين، ما دام هناك من هو أكبر منه الذي أوجد الشخص الحقير الذي لم يوجد من قبل ولا يكون من بعد، وإنّه كان في بداية خلقته من نطفة يمنى، وكان عاقبته جيفة نتنة، وما بينهما يحمل العذرة، فمن كان أوّله ووسطه وآخره هكذا فكيف يتكبّر على الآخرين، فليس ذلك إلّا لحقارة نفسه وصغرها وجهله وعدم وعيه ومعرفته، وكما قيل : من يتكبّر على الناس فإنّه بمنزلة الشخص الذي على جبل يرى الناس صغاراً كما يراه الناس صغيراً حقيراً، وربما يرونه بمقدار النملة والبعوضة.

فما أروع نصيحة لقمان لكلّ واحد من أبناء الإنسان أن يتواضع لله، فمن تواضع لله فقد يرفعه الله، ومن تكبّر فإنّه يضعه ويهوي به إلى أسفل السافلين، فلماذا التكبّر فإنّك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً، وكن كالشجرة ذات الفاكهة فكلّما ازدادت فاكهةً ازدادت إلى الأرض تواضعاً، وقدوتنا وأُسوتنا في التواضع الأنبياء والأوصياء والعلماء الصالحين، فبهداهم اقتده، فإنّهم الأُسوة والقدوة الصالحة.

التوبة والاستغفار

قال الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾[1].

لا شكّ ولا ريب أنّ من مميّزات الإسلام وخصائصه التي امتاز بها على سائر الأديان أنّه فتح باب التوبة بمعناها الحقيقي، فإنّه قرّر في وجه المذنبين والمخطئين والذين غلبتهم الشهوات والمصالح المادّية والشخصيّة فاقترفوا الذنوب والآثام إلّا أنّهم عادوا يلتمسون باباً يتقرّبون به إلى ربّهم الكريم الغفّار التوّاب، ويعيدون علاقتهم معه سبحانه فقرّر لهم على اساس صحيح ومنهج سليم.

والآية الشريفة تتعرّض لطوائف ثلاث من الناس :

الأُولى : طائفة عملوا السوء بجهالة وسفاهة وضلالة ثمّ انتهوا إلى فعلهم الشنيع وعملهم الفاسد، فتبصّروا وتابوا إلى بارئهم دون أن يستمرّوا في غيّهم وضلالتهم عن الهدى حتّى تبلغ الروح الحلقوم، فلا تقبل توبتهم وإنابتهم، فتابوا إلى الله جلّ جلاله قبل أن يتبيّن لهم الموت ويدخلوا في سكراته، فهذه التوبة هي توبة الندم والانخلاع عن الخطيئة، والنيّة الصادقة على العمل الصالح، والتي يقبلها

(١) النساء : ١٧ ـ ١٨.

الله، والتي تفضّل وأجاد فكتب على نفسه الرحمة بقبولها، فقال عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ ﴾، وهذا من باب ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾[1]، وهذه التوبة إنّما تصدر من التقيّ الذي أصابه مسّ من الشيطان فتبصّر وإذا به يتذكّر، فيندم ويرجع إلى الله تائباً نادماً مستغفراً باكياً، فيدلّ على أنّ هذه النفس قد هزّها الندم والاضطراب من الأعماق، ورجّها رجّاً شديداً حتّى استفاقت من سُباتها، وهي لا زالت في فسحة من العمر، فأُولئك يتوب الله عليهم، فإنّ ندمهم ندم صدق بلا رجوع إلى الذنب والمعصية، فلا يطردهم من بابه ولا من المجتمع، مع العلم أنّ لهم نيّة حقيقيّة صادقة في سلوك طريق جديد طاهر، وكيف يطردهم ولا يقبلهم وهو غنيّ عنه، ولا تنفعه توبتهم بل تنفع أنفسهم وتصلح حياتهم وسيرتهم الفردية والاجتماعية.

الثانية : طائفة يعملون السيّئات ويستمرّون في الانحراف والضلال ولا يفيقون رغم النصائح والمواعظ التي تبلغهم من قبل الأنبياء والأوصياء والعلماء الصالحين، فلم يتّعضوا إلّا حين يحضر أحدهم الموت فيقول : إنّي تبت الآن، فهذه التوبة هي توبة المضطرّ الذي أحاطت به خطيئته، فإنّه يتوب توبة من لم يكن عنده وقت لاستمرار المعصية وارتكاب الذنوب، وهذه لا يقبلها الله لأنّه عاين الموت وليست من أعماق القلب ولا تنشئ إصلاحاً فيه ولا في الحياة، فهو على شرف الاحتضار والذهاب، فلا تدلّ توبته هذه على تبدّل في الطبع وإصلاح في النفس والحياة.

الثالثة : الذين يموتون وهم كفّار، استمرّوا على طغيانهم وكفرهم بالله

(١) الأنعام : ١٢.

سبحانه وعدم إيمانهم بخالقهم العظيم حتّى الموت، فهؤلاء قد فقدوا كلّ ما بينهم وبين التوبة من خيوط وعلائق، وضيّعوا كلّما بينهم وبين المغفرة من فرص وحالات، ولا تقبل توبتهم أيضاً، بل أُولئك اعتاد الله لهم عذاباً أليماً.

وزبدة الكلام: يا أيّها الإخوان، ينبغي للمسلم الحقيقي أن يتوب سريعاً ودائماً إلى الله سبحانه، ويستغفر من اذنوب التي ارتكبها كما يعوّض ما كان قابلاً للتعويض من إرجاع المال إلى أهله، وأداء حقوق الله كقضاء الصلاة والصيام وأداء الخمس والزكاة، فيذكر الله قولاً وعملاً، كما قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾[1].

ولا شكّ ولا ريب أنّ الله وعد بقبول التوبة من غير الكافر والمشرك مهما كانت الذنوب والمعاصي ومهما كثرت وزادت:

﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ﴾[2].

كما يدلّ على ذلك الآيات الكريمة والروايات الشريفة، فإنّ الله يغفر جميع الذنوب إلّا ما أُشرك به، وقد ورد في الدعاء:

«اللهمّ إنّي أطعتك في أحبّ الأشياء إليك، وهو التوحيد، ولم أعصِكَ في أبغض الأشياء إليك، وهو الشرك، فاغفر لي ما بينهما».

إلّا أنّ الشرط الأساسي الذي لا بدّ أن يتوفّر في كلّ تائب وفي كلّ توبة هو الندم الواقعي والاضطراب الباطني على ما مضى من المعصية والآثام، ثمّ العزم

(١) آل عمران: ١٣٥.

(٢) آل عمران: ١٣٥.

على عدم العود إليها مرّة أُخرى، ولا يبغي الفساد في الأرض، ولا يكون كمن وصفهم القرآن الكريم:

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوِا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾[1].

ولا يخفى أنّ التوبة أوّل منازل السير والسلوك للسائرين إلى الله سبحانه.

وختاماً ينبغي أن نتنبّه ونعمل بما قاله أمير المؤمنين عليّ عليه السلام لكميل بن زياد النخعي عندما سأله عن الاستغفار والتوبة، فقال:

«الاستغفار درجة العلّيّين، وهو اسم واقع على ستّة معانٍ:

أوّله: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة ضيّعتها فتؤدّي حقّها.

الخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السُحت فتذيبه بالأحزان حتّى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

السادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية.

فعند ذلك تقول: أستغفر الله».

(١) يونس: ٢٢ ـ ٢٣.

ملء الفراغ

الانسان ـ منذ نعومة أظفاره ـ يسعى جادّاً ويجدّ جاهداً في حصول السعادة، ولا يتمّ ذلك إلّا بملء الأوقات، وكما قيل: (الوقت من ذهب، فإن فات فقد ذهب).

وبما أنّ مهن الناس متفاوتة وآراءهم وميولهم مختلفة، وكلّ بحسب ما يقتضيه حاله ومكانه وزمانه، فإنّه يستطيع أن يملأ فراغ وقته وعدم مضيعة الأوقات هدراً، لا ثمر فيه ولا شجر، ويحصد زرع عمره الندم والتأسّف والتحسّف، وكيف مرّت أيامه بلا نتيجة وانقضت ساعاته بلا ثمن ولا زاد يُقدم للآخرة، وهو يعلم أنها لن تعود ثانية ـ وهيهات ـ، وإنّها مرّت وتمرّ مرّ السحاب.

ولئلّا يستشعر بالفشل والتأوّه والوجل، فعليه الانتباه والحذر من إضاعة عمره وتمزيق حياته بالتسويف، وصرفها بالآمال بإهمال من دون أعمال، فالآجال تأتي غفلةً من دون إعلام وإشعار وأخبار.

فالسعي والجدّ لإعمار الآخرة ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾[1] بملء الأوقات بالحسنات والعبادات.

وحيث تختلف أعمال الناس فيمكن لكلّ مهنة أن ينوي التقرّب لربّه خلال ممارسة عمله. ويراقب معاملته الاجتماعية مع الآخرين ويحاسبها على الدوام ويتلافى الأخطاء.

(١) النجم: ٣٩.

فمثلاً: التاجر يملأ الفراغ بتصفية الحسابات، والتفكير بما يجلب الربح بلا ظلم للمستهلك والاستعداد لتجارة محلّلة شرعاً نافعة للآخرين، وما شابه.

والزارع يملأ فراغه بإصلاح أرضه وسقي زرعه.

والنساء يملئن فراغهنّ بتزيين أنفسهن لأزواجهنّ وتنظيف بيوتهن ومداراة أولادهن.

والأطفال باللعب النافع والفكري.

والطالب بعد مطالعة دروسه اليوميّة يسدّ فراغه بمطالعة الكتب الجيّدة والمجلات المفيدة.

وعلى العموم فإنّ قراءة الكتب ضرورة للجميع لثقافة عامّة، وكذا ذكر الله بالتسبيح والتهليل وغيرهما، كما وإنّ النظر إلى إصلاح ذاته بالخلق الحسن مع بني جنسه.

العفو عند المقدرة

العفو في الإسلام له أهمية كبيرة وأثر عظيم، وقد كثرت الآيات في مدحه وتواترت الروايات في حسنه، بعبائر مختلفة وألفاظ متعدّدة، تهدف إلى مضمون واحد بضروريّته في المجتمع، وقد حكم العقل بذلك، وأقرّه الوجدان، وحبّذه الضمير وإنّه من الفضائل والمكارم.

والعفو عند المقدرة يظهر جلالية وجمال خُلق صاحبه وما يتحلّى به.

وقد حثّنا الاسلام على هذه الصفة الحميدة:

﴿ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾[1].

﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[2].

وطبقها ـ عملياً ـ المعصومون عليهم السلام، باعتبارهم القدوة الصالحة والأُسوة الحسنة لجميع الناس ليقتدوا بهم ويتمثّلوا بسيرتهم الجليلة، التي نوّرت صفحات التأريخ الانساني. وعرفوا بسلوكهم نهج السعادة الاجتماعية وتهذيب النفس ورقيّها للكمال الحقيقي.

فقد روي أنّ رسول الانسانية صلى الله عليه وآله كان يمرّ في طريق فيؤذيه أحد اليهود، ويلقي عليه قاذورات، ومرّت الايام على ذلك المنوال، وبعد زمن لم يرَ النبيّ ذلك اليهودي وعمله المشين، فسأل عنه، فقيل له: إنّه مريض، فقال: وجبت عيادته،

(١) آل عمران: ١٣٤.

(٢) التغابن: ١٤.

فتعجّب أصحابه وبهتوا لهذه الأخلاق العظيمة، وهو صاحب قدرة على إيذائه أو منعه على الاقل. وإذا به يقوم بزيارته لأنه مريض. وفعلاً بعد الإذن في دخول بيته؛ سلّم عليه وجلس عند رأسه ودعا الله بأن يكسوه العافية ويعجّل بشفائه، فلمّا رأى اليهودي خلق الرسول وسمع دعاءه، خجل خجلاً تصبّب عرقه، ثمّ شهد الشهادتين على يدي المبعوث رحمةً للعالمين.

إنّه درس لمن ألقى السمع وهو شهيد، إنّه عطاء مثمر تتغذّى الاجيال من موائد أهل بيت الرحمة عليهم السلام على مرّ الزمان، إنّه نفحة روحيّة تترشّفه رواد الاخلاق الفاضلة لمن وعى معنى الانسانية فكانت سيرته منهاجاً قويماً توصل البشرية شواطئ الخير والرفاه.

إنّه العفو مطلقاً، والعفو عند المقدرة بالخصوص، وإنّها سيرة الائمة الاطهار على مسار حياتهم معلنين تغيّر حركة التأريخ نحو ثراء الخلق وإغنائه.

وقد ورد في النصوص الشريفة عن الرسول الأعظم وعترته الطاهرة: مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة ثلاث: أن تعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمّن ظلمك.

ولا يخفى أنّ العفو حسن لمن ظلمك شخصاً، فإنّ الظلم على نحوين: تارةً ظلم شخصي، وأُخرى ظلم اجتماعي، فحسن العفو لا سيّما عند المقدرة فيما لو كان الظالم قد ظلمك بظلم شخصي، وأمّا الظالم الاجتماعي ـ كالطغاة والجبابرة ـ فالمفروض مكافحتهم والقيام ضدّهم، كما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: كن للظالم خصماً وللمظلوم عوناً.

فلا بدّ من الجهاد والثورة ضدّ الظلم والظالمين.

وملبسهم الاقتصاد

قال أمير المؤمنين أسد الله الغالب الإمام عليّ بن أبي طالب في حديث طويل في وصف المتّقين كما في نهج البلاغة :

«وملبسهم الاقتصاد».

الاقتصاد لغة : من القصد وهو بمعنى الحدّ الوسط من دون إفراط وتفريط، وهذا المعنى اللغوي شائع في النصوص الدينية، والمعنى المصطلح مأخوذ منه أيضاً.

ثمّ هناك صفة عامّة يجب أن تنطبع بها كلّ أفعال الإنسان المؤمن إيماناً حقيقياً، فمن كان مؤمناً بالله وباليوم الآخر، فكلّ حركاته وسكناته ومظاهر سلوكه الخارجي والداخلي تنطبع بهذه الصفة، ألا وهي صفة الاقتصاد ومعناه المحافظة على الاعتدال والتوسّط في كلّ شيء من الأكل والنوم وفي اللباس والأثاث والمتاع، وفي القول والعمل والاستمتاع بكلّ الملذّات وغير ذلك.

يجب أن يكون المؤمن والمتّقي والخائف من الله سبحانه معتدلاً في هذه الحركات كلّها بمعنى أن لا يكون في جانب الإفراط، كما لا يتّخذ جانب التفريط، فمثلاً : لا يكون جباناً ولا يكون متهوّراً، بل يراعي الحدّ الوسط والذي يسمّى بالشجاعة، ولا يكون بعيداً عن العبادة أصلاً كما لا يكون أيضاً صارفاً أوقاته كلّها في العبادة والصلاة وغير ذلك بحيث ينسى نصيبه من الدنيا، وهكذا في سائر التصرّفات يجب أن يكون محافظاً على الاعتدال والحدّ الوسط، حتّى في ملبسه كما وصفه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بقوله : «وملبسهم الاقتصاد». ولا يبعد أن

يكون مقصوده عليه السلام أنّ المتّقين في كلّ حركاتهم وأعمالهم يلبسون الاقتصاد.

فالاقتصاد والاعتدال بمنزلة اللباس لهم، يلبسونه على كلّ تصرّفاتهم وسلوكهم، وكما أنّ اللباس يستر البدن كلّه ويلبسه فيكون قالباً للبدن كذلك الاقتصاد قالب لأعمال المتّقين، فليس المقصود هو الاقتصاد في اللباس فقط، حتّى يكون أحد أوصاف المتّقين أنّهم يقتصدون في ملابسهم فقط، بل مقصود الإمام عليه السلام الاقتصاد في كلّ شيء غير اللباس، فإنّه لم يقل وملبسهم الاقتصاد وفي اللباس، فلماذا انحصر كلامه عليه السلام بخصوص اللباس، بل يكون من الاستعمال المجازي والكنائي أو الاستعارة كما في قوله تعالى في الأزواج :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾[1].

هذا ولنا في سيرة الإمام عليه السلام وتصرّفاته خير أُسوة وقدوة، فلننظر إلى تاريخه المشرق وإلى ما يقوله التاريخ عن هذا الإمام العظيم صوت العدالة الإنسانية، ولنفهم ما يقوله في مكتوبه إلى عثمان بن حنيف الذي كان والياً على البصرة من قبله عليه السلام حيث يقول :

«ألا وإنّ لكلّ مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعامه بقرصيه»...

وهكذا إلى أن يقول :

«فوالله ما كثرت من دنياكم تبراً ولا ادّخرت من غنائمها وفراً، ولا أعرت لبالي ثوبي طمراً».

وقال في حديث آخر :

«لا تقدروا على ما أنا عليه، ولكن أعينوني بورعٍ واجتهاد وعفّةٍ وسداد».

---

(١) البقرة : ١٨٧.

نوعيّة التحدّث

من أهمّ المواضيع والمفاهيم الأخلاقية في الإسلام هو نوعيّة التحدّث مع الناس وكيفيّة معاشرة مختلف الطبقات الاجتماعية، وملاحظة الرموز الأخلاقيّة في علاقات الإنسان مع سائر الأفراد.

وهناك كتب عديدة مؤلّفة بقلم الكتّاب الغربيّين أو الشرقيّين تبيّن الأساليب التي بها يتمكّن الإنسان من التأثير على الناس والنفوذ في روحيّاتهم ونفسيّاتهم، مع أنّنا لو لاحظنا الأحاديث الإسلامية لرأيناها تهتمّ بهذا الجانب اهتماماً أكيداً، وتوضح لنا مختلف الطرق والسبل للتعرّف على الناس وكسب مودّتهم وكيفيّة التكلّم والتحدّث معهم، فهناك العشرات من الروايات التي وردت بهذا الصدد. أضف إلى ذلك سيرة وسلوك النبيّ الأعظم الذي وصفه الله بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1]، وكذلك حياة الأئمة الأطهار المليئة بالنماذج الحيّة، وكذلك حياة علمائنا الصالحين رحم الله الماضين وحفظ الباقين، فيمكننا أن نأخذ من سلوكهم مع الناس دروساً عديدة ومهمّة، فإنّهم القدوة الحسنة والأُسوة الصالحة.

فمن آداب النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه كان يبتدئ بالسلام على من يراه ويلاقيه، حتّى لم يسبقه بالسلام أحد، كما أنّه لم يكن ينظر إلى من يريد أن يتكلّم معه شزراً، بل كان يتّجه إليه بكلّه، ويكلّمه بلطف ويبتسم في وجهه، ولو أخطأ شخص في كلامه لم يكن يؤاخذه ويحاسبه. بل بكلّ مودّة ومحبّة يشير إليه إلى ما فيه الصواب

(١) القلم: ٤.

والصحيح.

ولم يجرأ أحد أن يرفع صوته عنده هيبة منه وإجلالاً له، وكان قليل الكلام ولا يقطع كلام أحد ولا يلوم أحداً، وكان يستمع إلى كلام الناس...

وأمير المؤمنين عليه السلام نسخة أُخرى لهذه الأخلاق الفاضلة، وقد وصف عليه السلام المتّقين في خطبته المعروفة بخطبة المتّقين التي قالها لهمّام أحد أصحابه، فقال عليه السلام: «ومنطقهم الصواب»، أي من المتّقين والذين يخافون ربّهم أحد صفاتهم أنّهم في منطقهم وكلامهم لا ينطقون إلّا بالكلام الصحيح الخالي عن الكذب والافتراء والفحش والغيبة وهتك الأعراض والاستهزاء والسبّ والإهانة وقول الزور والباطل والغناء وما شابه ذلك من الكلام البذيء الذي لا يرضي الله سبحانه.

وهكذا يكون منطقهم صواباً لا خطأ فيه ولا معصية.

سوء الظنّ

قال الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾[1].

عندما نقرأ ونتلو هذه الآية المباركة ونتأمّل فيها نجد أنّ هناك ثلاث مراحل نهى الله عنها، وإحداها تتلو الأُخرى، وهي :

الأُولى : ظنّ السوء بالآخرين، فإنّ الإنسان باعتبار مدركاته له حالات أربعة، فإمّا أن يقطع ويعلم ويتيقّن بالموضوع أو القضيّة وهو اليقين والعلم، ويكون ما يعلمه ويدركه مئة بالمئة، وإمّا ان يشكّ فيه أي خمسون بالمئة إيجاباً وخمسون سلباً، فهو متساوي الطرفين، أو يقلّ عن الخمسين إلى الواحد بالمئة، فهو الوهم، وما يزيد عن الخمسين إلى ٩٩ ٪ فهو الظنّ، وإذا كان متاخماً وقريباً للعلم يسمّى بالعلم العادي، وفي المصطلح القرآني يطلق الظنّ ما دون المئة إلى الواحد فيعمّ الظنّ والشكّ والوهم المنطقي.

فالقرآن الكريم أكّد على اجتناب الظنّ وأنّه لا بدّ من العلم واليقين، لأنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً، إلّا الظنّ المعتبر شرعاً كخبر الثقة وظواهر الكتاب الكريم، وغيرهما يلحق بالظنّ المطلق الذي ثبت في علم (أُصول الفقه) كما عند

(١) الحجرات : ١٢.

شيخنا الأعظم الشيخ الأنصاري في فرائده عدم حجّيته بالأدلّة الأربعة ـ الكتاب والسنّة والإجماع والعقل ـ فسبحانه وتعالى نهى المؤمنون عن كثير من الظنّ، فإنّ بعضه فيه الإثم والذنب، إذ يترتّب عليه مفاسد فرديّة واجتماعيّة.

ولا يخفى أنّه ورد «أنّ سوء الظنّ من حسن الفِطن»، وأنّه «إذا فسد الزمان فلا تحسن الظنّ»، ولكن جمعاً بين هذا وبين ما ورد من النهى نقول : إنّ سوء الظنّ في بعض الموارد من الكياسة وحسن الفطانة، فإنّه يستلزمه الحذر والاحتياط وعدم التورّط بالشبهات والمشاكل المجهولة، ولكن بشرط أن لا يرتّب على سوء ظنّه من الآثار العمليّة، فإنّ بعض الظنّ إثم، فلا يرتّب الأثر حتّى يصل إلى درجة العلم واليقين والشهود والحضور، ولكن هذا لا يعني أنّه يتجسّس على الآخرين ليؤكّد سوء ظنّه ويُبتلى بالمرحلة الثانية، فإنّ من يسيء الظنّ بأخيه المؤمن عندما يريد أن يتيقّن من ظنّه هذا فإنّه يبدأ بعملية التجسّس من كلّ جانب ومكان، وهذا ممّا حرّمه الله سبحانه أيضاً بقوله تعالى : ﴿ وَلا تَجَسَّسُوا ﴾ والنهي يدلّ بظاهره على التحريم، فيحرم عليه التجسّس كما أنّه يبتلى بالمرحلة الثالثة، وهي الغيبة المحرّمة أشدّ الحرمة، فإنّه عندما يتجسّس ويطّلع على بعض القضايا يحاول أن يذكره عند الناس، فيذكر من أخيه ما لو سمعه لتألّم وكره ذلك، وكأنّه يقطع من لحم أخيه فيأكل وهو غائب عنه، وكأنّه بحكم الميّت، وهل الإنسان عنده استعداد أن يأكل لحم أخيه ميّتاً ؟ هيهات فإنّه يكره ذلك.

فالغيبة من الصفات الرذيلة والقبيحة، يعبّر الله عنها باللحم الميّت، وبهذا يستفهم على نحو الاستنكار أنّه أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً، فأجاب : فكرهتموه.

فالآية الشريفة ترتبط بعضها ببعض، وإنّه إذا دخل الإنسان في المرحلة

الأُولى (سوء الظنّ)، فإنّه سيدخل في المرحلة الثانية (التجسّس) وإذا عمل به سيدخل الثالثة (الغيبة)، فلا بدّ من الاجتناب عن الأُولى أوّلاً حتّى لا يبتلى بالمراحل البقيّة، وهذا من الأُصول الأخلاقية في الإنسان أن يعالج المسألة من البداية ومن جذورها وأساسها وعللها الأُولى، فينهى عن سوء الظنّ، فإنّ بعضه إثم ويترتّب عليه التجسّس والغيبة التي هي إدام كلاب النار.

الوحدة الإسلاميّة

قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾[2].

﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[3].

قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إنّما المؤمنون في تواصلهم وتوادّهم كالجسد الواحد، كلّما اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى».

وقال صلى الله عليه وآله:

«من هجر أخاه المسلم ثلاثة أيّام فليس بمسلم».

وقال صلى الله عليه وآله:

«من أصبح ولم يهتمّ بأُمور المسلمين فليس منهم».

---

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) الحجرات: ١٠.

(٣) الأنفال: ٤٦.

نفهم من مجموع هذه النصوص الإسلامية من القرآن الكريم والأحاديث النبويّة الشريفة وكذلك الآيات والأخبار الأُخرى الكثيرة جدّاً عن الرسول والعترة الطاهرة الأئمة المعصومين من أهل بيته عليهم السلام أنّ الإسلام حاول بكلّ جهوده وجهاده وشتّى طرق محاولاته أن يوحّد المسلمين بكلمة التوحيد والتي هي كلمة الأُمّة الإسلامية، كما عبّر عن ذلك المرحوم آية الله المجاهد الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء قدس سره، فقال: «ليس الإسلام سوى توحيد الكلمة بكلمة التوحيد».

ومع الأسف الشديد تغلغل الكفر والاستعمار بين المسلمين، ومن اليوم الأوّل ليثبت بينهم سموم الشقاق والاختلاف والنزاع الدمّوي انطلاقاً من سياسته المقيتة (فرّق تسد)، فوقع المسلمون من أوّل يومهم الغابر في شبكاتهم وحبائلهم وإلى يومنا الحاضر، وكأنّهم كانوا غيّاباً عن هذه النصوص الإسلامية القاطعة، فكانوا من أمرهم كما قال السيّد جمال الدين الأسدآبادي: «إنّهم اجتمعوا على أن لا يجتمعوا، واتّفقوا على أن لا يتّفقوا، واتّحدوا على أن لا يتّحدوا».

فلا بدّ أن نرجع إلى صميم الإسلام مرّةً أُخرى ونوحّد الصفوف والقلوب أمام أعداء الإسلام والمسلمين من اليهود والصهاينة والاستعمار العالمي بقطبيه الغربي والشرقي، ومكافحة ثقافتهم الاستعمارية من الامبريالية والشيوعيّة، فلا شرق ولا غرب، نعم للإسلام وحده، وأنّه يعلو ولا يُعلى عليه، وإنّ الأرض لعباد الله الصالحين، هذا ما وعدنا الله به، ولن يخلف الله وعده.

ولا يخفى أنّ دواعي الاختلاف كثيرة، منها الاختلاف العقائدي والمذهبي بين الأديان والمذاهب، فيا تُرى ما هو الحدّ الصحيح من هذه الاختلافات العقائديّة؟

الاختلاف العقائدي في منطق الإسلام

قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ ﴾[1].

وقال عزّ وجلّ:

﴿ لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالمَوَدَّةِ ﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾[3].

وقال عزّ من قائل:

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾[4].

وقال جلّ جلاله:

﴿ إِنَّمَا المُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾[5].

---

(١) النساء: ١٤٤.

(٢) الممتحنة: ١.

(٣) المجادلة: ٢٢.

(٤) التوبة: ٢٤.

(٥) التوبة: ٢٨.

نفهم من مجموع هذه الآيات الكريمات وكذلك الأُخرى، كما جاء في الأخبار والأحاديث الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام أنّ الله تبارك وتعالى أمرنا نحن المسلمين أن نجتنب الكافرين من اليهود والنصارى والمشركين، ولا نوادّهم ولا نلقي إليهم المحبّة والمودّة، ولا ندعهم يدخلون المسجد الحرام قبلة المسلمين والإسلام، فضلاً من أن نتّخذهم أولياء... وعلى هذا يبتني حكم الفقه الإسلامي، فإنّه يجب على المسلمين كافّة وأصحاب المسؤولية والسياسة خاصّة أن يجتنبوا الكافرين لكفرهم ونجاستهم، فهذا حكم فقهي وسياسي ديني يقصد منه الإسلام الفصل بين معاشرة المسلمين مع الكافرين لئلّا تتسرّب العقائد الكافرة والأفكار المنحرفة منهم إلى المسلمين، وإلّا فلا يحكم الإسلام بحرمة حسن معاشرتهم والإحسان إليهم والمعاملة معهم معاملة طيّبة تحكي عن أخلاق الإسلام الرفيع كما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «إذا جالست يهودياً فأحسن مجالسته»، فهذا جائز ومباح، بل مندوب إليه في الشريعة الإسلامية وأخلاقها الطيّبة، إلّا أنّه ما لم يكونوا في حالة حرب واعتداء مع المسلمين، وتخطيط لنهب ثرواتهم والوقيعة بمقدّساتهم، فعندئذٍ يحرم ذلك على جميع المسلمين، بل لا بدّ من مكافحتهم وقطع أياديهم من بلاد المسلمين.

وفي القرآن الكريم آية تدلّ على إباحة المعاشرة الحسنة معهم ما لم يكونوا في حالة حرب مع المسلمين، وذلك في قوله تعالى:

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[1].

(١) الممتحنة: ٨.

فإنّ هذه الآية تدلّ بوضوح على أنّ الآيات السابقة التي كانت كلّها تدلّ على حرمة المعاشرة معهم، إنّما ذلك في حالة محاربتهم مع المسلمين (ما عدا حكم نجاستهم).

وأمّا بالنسبة إلى من لم يحارب المسلمين منهم، فإنّ هذه الآية الأخيرة تبيح لنا حسن معاشرتهم وكسبهم ودعوتهم إلى الإسلام دين الله القويم:

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[1].

(١) آل عمران: ٨٥.

الأعياد في الإسلام

قال رسول الله ﷺ :

«أعياد المسلمين أربع : الفطر والأضحى والغدير والجمعة».

العيد في اللغة إمّا أن يكون مأخوذاً من عاد يعود، ويسمّى اليوم الخاصّ بالعيد لأنّه يعود كلّ سنة مرّة، أو مأخوذ من العوائد جمع العائدة، بمعنى : الفائدة الموهوبة، لأنّ العيد يشمل على عوائد ومواهب وذكريات طيّبة.

ولكلّ أُمّة أعياد من ذكرياتهم يمجّدونها ويحتفلون بها، وقد عيّن الرسول الأعظم محمّد ﷺ لأُمّته في شريعته السمحاء أعياداً أربعة :

١ ـ عيد الفطر : وهو أوّل يوم من شهر شوّال المكرّم من كلّ سنة، ويسمّى بالفطر لإفطار الصائمين فيه، ولإعطائهم زكاة الفطرة إلى فقرائهم ومساكينهم وفي سبيل الله، ويعود الله عليهم بعوائده وفواضله من قبول الصيام والأعمال الصالحة والصدقات والزكوات.

٢ ـ عيد الأضحى : وهو اليوم العاشر من شهر ذي الحجّة الحرام، ويسمّى بالأضحى، لأنّ الحجّاج يضحّون قرابينهم إلى الله في (منى) ويعود الله عليهم بعوائده ونِعَمه الخاصّة، من قبول الحجّ والأعمال والمناسك ونزول الفيوضات الإلهيّة.

٣ ـ عيد الغدير : وهو اليوم الثامن عشر من نفس الشهر (ذي الحجّة)، ويسمّى بالغدير من باب تسمية الزمان بتسمية المكان، وإعادة الذكرى والخاطرة، فإنّ الغدير اسم للمكان الذي حدث فيه هذه الذكرى المباركة وهي ذكرى نصب أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في منصب الإمامة

والخلافة بلا فصل بعد النبيّ المصطفى محمّد ﷺ، وأخذ البيعة من الناس له على ذلك، ونزول آية إكمال الدين وإتمام النعمة في قوله تعالى :

﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾[1].

فهو يوم مبارك وعظيم عند الله والأنبياء والأولياء والصالحين عاد الله تعالى فيه على المؤمنين والمسلمين بعوائد جمّة ومنافع عظيمة، من إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الربّ، وذلك بتتويج أسد الله الغالب عليّ بن أبي طالب بتاج الإمامة والإمارة على المؤمنين، فالذكرى إذن ذكرى تتويج الإمام عليه السلام بتاج الإمامة.

٤ ـ يوم الجمعة : وهذا يكون كلّ أُسبوع ويعود المسلمون فيه للاجتماع في جوامعهم حول أئمّتهم وعلمائهم ليستمعوا إلى خطبهم ومواعظهم وإرشاداتهم وإلى ما حدث على المسلمين في الأُسبوع المنصرم، وما يجب عليهم في الأُسبوع الآتي من العمل والجهاد والسعي.

ومن هذا الحديث الشريف في مطلع الموضوع نفهم أنّ أعياد المسلمين أربع، وما زاد عليها فليس من الإسلام في شيء، وإنّما هي زوائد زيدت عليه، فإن كانت باسم الشريعة والدين فسوف تكون بدعة محرّمة، فإنّها إدخال ما ليس في الدين في الدين، وقد قال رسول الله ﷺ : «كلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار»، وإن كانت باسم أعياد وطنيّة أو قوميّة أو إقليمية أو غيرها فهي ليست من الشريعة أيضاً، ولكنّ الالتزام بها لا يحكم عليه بالحرمة المطلقة، وربما يقال بجوازها لو لم تتنافى مع روح الإسلام والشريعة السمحاء.

---

(١) المائدة : ٣.

إحياء الذكريات الإسلاميّة

لقد قلنا في مفهومنا الإسلامي عن الأعياد المباركة أنّها ليست سوى أربع : الفطر والأضحى والغدير والجمعة.

ولكنّنا نعود الآن لنقول : إنّ الأعياد الإسلامية وإن كانت أربعة فقط إلّا أنّ التشييد بأيام الله سبحانه وبالذكريات الإسلامية المجيدة سوى الأعياد الأربعة أنّه من الأمر المستحبّ والمندوب إليه من قبل الشارع أيضاً، فإنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام والرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في سيرتهم الشريفة نجد ما يدلّ على هذا الأمر بوضوح، فذكّرهم بأيام الله، لما في الذكرى والتذكرة من نفع جسيم وفائدة عظيمة للمؤمنين، فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين، وبهذا ورد عن الأئمة الأطهار تكريم أيام الله عزّ وجلّ، والتي منها ما فيها الفرحة والسرور كولادتهم، ومنها ما فيها الحزن والألم كشهادتهم ومصائبهم، فيحتفل بمواليدهم ووفياتهم إحياءً لسيرتهم وحياتهم وتخليداً لذكراهم حتّى يقتدى بهم ويتأسّى بنهجهم وسلوكهم، ويؤخذ بعقائدهم وفقههم، فلا بدّ لنا من إحياء الأيام التي فيها مجد الإسلام وعزّه.

قال الإمام الصادق عليه السلام :

«شيعتنا منّا، خلقوا من فاضل طينتنا، وعجنوا بماء ولايتنا، يفرحون لفرحنا ويحزنون لحزننا، أُولئك منّا ونحن منهم وهم معنا في الفردوس الأعلى».

وهذه الأيام ومناسباتها المجيدة، بما أنّها مناسبات دينيّة إسلاميّة تتّصل بالوحي وبالسماء وأهله، فهي من شعائر الله تعالى وقد قال سبحانه :

﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ ﴾[1].

إذن، تعظيم المناسبات الإسلامية المجيدة، هي من شعائر الله وذلك أمر مندوب إليه من قبل الأئمة الأطهار عليهم السلام، وربما في بعض الصور يكون لازماً وحتماً مقضيّاً، فمن تلك الشعائر الإلهيّة ذكرى ميلاد النبيّ الأعظم محمّد صلى الله عليه وآله وذكرى مبعثه الشريف وذكرى وفاته، وذكرى ولادة الزهراء فاطمة سيّدة النساء عليها السلام وكذلك شهادتها، وذكرى مواليد الأئمة الأطهار وأيام شهادتهم لا سيّما قصّة كربلاء وواقعة الطف ويوم عاشوراء.

فتعظيم هذه الأيام الخالدة تعظيم لأصحابها العظماء، بما هم أُمناء الله ورسله على عباده ودينه العظيم لشعائر الله العظيم، وإنّ تعظيمها من تقوى القلوب وأنوار العقول، فتُعظّم هذه الأيام وأمثالها لا باعتبار أنّها أعياد إسلامية رسميّة، بل بحسبانها ذكريات أيام إسلامية مجيدة خالدة تُعظّم وتُبجّل وتُكرّم تعظيماً لشعائر الله سبحانه :

﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ ﴾.

---

(١) الحجّ : ٣٢.

فضيلة الجهاد

قال الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿ فَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ ﴾[1].

من المفاهيم الإسلامية المقدّسة موضوع الجهاد، والجهاد من الجُهد ـ بالضمّ أو الفتح ـ لغةً بمعنى بذل ما في الوسع والطاقة، واصطلاحاً بمعنى جهاد العدوّ، والأعداء إمّا باعتبار داخل المسلم أو باعتبار خارجه، فمن يجاهد في الله سبحانه أعداءه في داخل نفسه أي النفس الأمّارة بالسوء والشيطان الذي يوسوس في صدره، وهو عدوّه اللدود، فإنّ ذلك من الجهاد الأكبر، وتارةً المسلم يجاهد أعداء الإسلام وهو الجهاد الأصغر، وأشجع الناس من غلب هواه، فجهاد النفس أعظم، كما أنّه يجب جهاد أعداء الإسلام والمسلمين من الكفّار والمشركين والمنافقين، فقاتلوا أئمة الكفر والنفاق، ومن يقتل فلا تحسبه ميتاً، بل من يقتل في سبيل الله يكون حيّاً عند ربّه يرزق ويفرح ويستبشر بما يأتي من بعده.

فالجهاد أصل من أُصول الإسلام، وانتشر الإسلام بخُلق النبيّ وأموال خديجة وشجاعة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وجهاد المجاهدين والمخلصين والشهداء الصالحين.

إلّا أنّه من المفاهيم الخاطئة التي تسرّبت إلى البلاد الإسلامية من جرّاء التبشيرات المسيحية المقيتة والمنحرفة حول مفهوم (الجهاد في الإسلام) فسعى

(١) النساء : ٩٥.

المسيحيون بالدعوة المسيحية الجوفاء الفارغة على أنّ السيّد المسيح عليه السلام إنّما جاء بالسلم والمحبّة لا بالحرب، فنحن دعاة السلم لا الحرب، وأمّا الإسلام فقد جاء بالقتل والحرب والسيف والسنان والرماح وتسعير نار الحروب وإيجاد نزاعات دامية طاحنة تدور رحاها على قطع الرؤوس والأيدي والأرجل.

وللأسف سمع هذا شبابنا المسلم الفارغ من البناء العقائدي الصحيح، فانخدع بزخرفة هذه الدعوة السلميّة، فحاول أن يطبّقها على إسلامه، ويصنع بذلك لإسلامه تبشيراً كالتبشير المسيحي الأجوف، فحرّف مفهوم الجهاد في الإسلام بما شاء له هواه، فقال : لم يكن الجهاد في الإسلام إلّا دفاعاً عن وجوده فحسب، ونفى بذلك المفهوم الصحيح للجهاد الإسلامي الشريف، وفيما نرى الفقه الإسلامي العادل والرشيد يصرّح بتقسيم الحركة المسلّحة في الإسلام إلى قسمين :

١ ـ دفاع عن الإسلام.

٢ ـ وجهاد في سبيل نشر الإسلام في ربوع الأرض أينما كان.

إلّا أنّه عندما يدعو إلى الإسلام باعتبار أنّه الدين الذي ارتضاه الخالق لخلقه، يدعوه أوّلاً بالمنطق السليم والدلائل القاطعة، إلّا أنّ من الناس من استحوذ عليه الشيطان فصار معانداً ولجوجاً وركب رأسه، فلا يرضخ للحقّ وأهله، بل يدافع عن الباطل وأهله، ولا بدّ للحقّ أن ينتصر ويزهق الباطل، فأوّلاً بالمنطق السليم فإن لم ينفع لعناد الخصم ولجاجته وضلاله وانحرافه، فإنّه يزال عن المجتمع الإنساني لأنّه عامل فساد، فيحارب حينئذٍ، ولا بدّ من المناضلة والجهاد من أجل تثبيت العقائد الصحيحة والمبادئ القيّمة والمثل الإنسانية التي جاء بها الإسلام الحنيف، وهذا من الصواب، ويدلّ عليه العقل السليم والفطرة السليمة، كما يدلّ عليه الأدلّة السمعيّة من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة.

وبعد أن فهمنا واقتنعنا بصحّة العقيدة الإسلامية المباركة وعدالتها، فمن مقتضى العدالة في هذه الدعوة الإلهيّة بصفتها تتكفّل مصالح البشر وفي خلافها خلاف مصالحهم أن تحاول نشر دعوتها الصادقة على أكبر قدر ممكن من بني الإنسان، فإن أمكن أوّلاً بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[1]، وإلّا فبالجهاد الإسلامي العادل والشريف، وإمّا أن ندّعي لنفسها الصحّة والأحقّية وضمان مصالح البشر والناس كافّة، ومع ذلك نتقاعس ونقعد ونسكت ولا نحاول النشر الواعي، فذلك ممّا يتنافى مع عدالتها ودعوتها، استجيبوا لله ولرسوله لما فيه حياتكم وسعادتكم. ومن يعتقد بصحّة دينه ولا يفكّر في نشره والجهاد من أجله، فإنّه يكون ممّن استلزم بالمتناقضات ـ والجمع بين النقيضين محال ـ فكأنّما الإسلام يقول: إنّي وإن كنت صحيحاً وعادلاً وشاملاً للمصالح وضامناً للسعادة البشرية، وإنّ في خلافي خلاف مصالحهم، ولكن أيّها العقائد الأُخرى والأديان الأُخرى والمبادئ الأُخرى أنتم أيضاً على الصحّة والسلامة والعدالة فانتشروا في الأرض جميعاً، فهل هذا إلّا من التناقض الصريح المنافي للعقل السليم ؟!

ولمثل هذا نقول دائماً: إنّما الحياة عقيدة وجهاد، وهيهات منّا الذلّة، والموت قاهرون خير من الحياة مقهورين.

(١) النحل: ١٢٥.

النصر أو الشهادة

قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[1].

إنّ الله سبحانه يأمرنا في هذه الآية الكريمة من القرآن المجيد أن نُعدّ أنفسنا للجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ والدفاع عن حريم المقدّسات الإسلامية ما نستطيعه من القوى والأسلحة والعتاد والذخائر الحربيّة والدفاعيّة، لنرهب بذلك عدوّ الله الذي هو في الواقع عدوّ الإنسانية أيضاً.

وبما أنّ من العتاد القديم الخيول المدرّبة على فنون الحرب والقتال، لذلك خصّ الله تهيئة الخيول بالذكر، وإلّا ففي كلّ عصر ومصر له أسلحته الخاصّة، وإنّ القرآن يتماشى مع الركب البشري من التمدّن والحضارة والتقدّم الصناعي والتكنولوجي.

وإنّ الإعداد بالعِدّة ـ بالكسر ـ والعُدّة ـ بالضمّ ـ ممّا يقرّه العقل السليم والفطرة السليمة، فالأمر به في القرآن الكريم واجب الاتباع ـ عقلاً ونقلاً ـ كوجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والخمس. ولكنّه من المؤسف جدّاً أنّ المسلمين إن كانوا قد أعاروا للأوامر العبادية شيئاً من الاهتمام بها، فإنّهم ـ ويا للأسف الشديد ـ لم يهتمّوا لهذا الأمر الأكيد حتّى بمقدار اهتمامهم القليل

(١) الأنفال: ٦٠.

بالأُمور العبادية. ولذلك تراهم اليوم قد أصبحوا فريسة كلّ واردٍ وشاردٍ وطامع وحاسد وباغت بالمكائد من الكفّار والمستعمرين والمستكبرين من الإمبريالية والشيوعية والماسونية والصهيونية العالمية، فكلّ واحد يريد الوقيعة بالإسلام والمسلمين، وإنّه يخطّط بكلّ ما أُوتي من قوّة لنهب الثروات واستثمار الشعوب واستعبادهم واسترقاقهم بطريقة حديثة ومعاصرة.

إذن، وبعد أن عرفنا الداء والدواء والتفتنا اليوم إلى ما نحن فيه من الحالة المزرية المشينة المشجية المحزنة المبكية، وبعد أن التفتنا إلى ما أمرنا به ربّنا الله سبحانه في هذه الآية الشريفة من كتابه الكريم، يجب علينا نحن المسلمين أن نكون على وعي تامّ وشعور دائم ويقظة وانتباه مستمرّ في سبيل العمل والدعوة على طبق أوامر الله تعالى وتشريعاته الحكيمة، لعلّنا نستطيع أن نتحوّل من أسوأ حالنا اليوم إلى أحسن حالٍ في فجر غده المشرق.

ونستعدّ لإقامة الحكومة الإسلامية في ربوع الأرض، ولا نهاب أعداء الله بل نعدّ لهم العدّة والعُدّة من رجال أقوياء أبطال ومن أسلحة نرهب بها عدوّ الله وعدوّنا، ونستقبل الموت بأنفسنا وأرواحنا ولا نخاف منه، وقع علينا أم وقعنا عليه، وتتبلور فينا الحرّية والفوز بإحدى الحسنيين: إمّا النصر وإمّا الشهادة.

ما هي وظائفنا الدينية ؟

روى الشيخ الطبرسي في كتاب (الاحتجاج على أهل اللجاج)، عن الإمام العسكري عليه السلام أنّه قال:

«... وأمّا الحوادث الواقعة، فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا، الذين نظروا في حلالنا وحرامنا وعرفوا أحكامنا، فإنّي جعلتهم حجّة عليكم وأنا حجّة الله عليكم، فالرادّ عليهم كالرادّ علينا، والرادّ علينا كالرادّ على الله، فهو في حدّ الشرك».

وروى في التوقيع الشريف عن الناحية المقدّسة صاحب العصر والزمان أنّه قال عليه السلام:

«... وأمّا الحوادث الواقعة... فانظروا من كان من الفقهاء مطيعاً لمولاه مخالفاً لهواه... فعلى العوام أن يقلّدوه».

يأمرنا إمامنا الحسن العسكري عليه السلام وكذلك مولانا وإمامنا المنتظر صاحب العصر والزمان الحجّة بن الحسن العسكري عليه السلام وعجّل الله فرجه الشريف: أن نرجع في الحوادث الواقعة، أي في مسائلنا العبادية وفي المعاملات والعاديات والسياسيات في زمن الغيبة الكبرى إلى من كان من فقهائنا عادلاً، موثوقاً به، ومطمئناً إليه، ومعتمداً عليه، بأن يكون مطيعاً لأوامر الله تعالى ومخالفاً لهوى نفسه، وحافظاً لدينه...

وقد عرّف الإمام العسكري عليه السلام الفقيه بأنّه الذي نظر في أحكام الإسلام نظر اجتهاد واستنباط، فعرف منها الحلال والحرام، فليست المعرفة هنا المعرفة

التقليدية. بل إنّما هي المعرفة الاستدلالية الاستنباطية عن أدلّتها الشرعيّة التفصيلية، وهي كما عند المشهور أربعة: الكتاب والسنّة والإجماع والعقل.

إذن، وظيفتنا في زمن غيبة أئمّتنا ولا سيّما إمامنا ـ وأنّه كالشمس وراء السحاب ننتظر طلوعه وظهوره المبارك ـ في أحكامنا الشرعيّة من العبادات والمعاملات، أن نرجع فيها إلى فقهاء الإسلام وعلماء الدين العدول الثقات.

ودليلنا على هذه الوظيفة: حكم أئمتنا عليهم السلام، ونخصّ بالذكر منهم هنا الإمامين الحسن العسكري والحجّة المنتظر عليهما السلام.

هذا بالإضافة إلى الحكم العقلي القاطع بذلك: حيث أنّ العقل والعقلاء جميعاً يحكمون برجوع الجاهل في أيّ شيء إلى العالم به، بشرط أن يكون هذا العالم موثوقاً به، ومطمئنّاً إليه، ومعتمداً عليه.

هذا وقد ورد الأمر بذلك في القرآن الكريم أيضاً في قوله تعالى:

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

وفي آية النفر وغيرها، فثبت المطلوب عقلاً ونقلاً.

ففي فروع الدين إمّا أن يكون المكلّف الملتفت مجتهداً، بأن يستنبط الأحكام من أدلّتها التفصيلية بنفسه بعد دراسة طويلة وخبرة عميقة، وإمّا أن يكون مقلّداً لمجتهد وفقيه جامع للشرائط، وإمّا أن يكون محتاطاً.

وتفصيل ذلك في الرسائل العملية والكتب الفقهيّة، فراجع.

(١) النحل: ٤٣.

نظام الحكم والإدارة في الإسلام

قال الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾[2].

لقد عرفنا في مباحثنا العقائدية ومفاهيمنا الإسلامية أنّ الإمام والولاية تكون في عهد النبيّ للنبيّ صلى الله عليه وآله، ثمّ من بعده بتعيين من الله ووصاية منه صلى الله عليه وآله تكون للأئمة الأطهار عليهم السلام من بعده، وقد عددناهم في ما مضى اثنى عشر إماماً، كلّهم من قريش، أوّلهم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وآخرهم المهدي من آل محمّد عليهم وعجّل الله فرجه الشريف.

وقد درسنا في البحث السابق من مفاهيمنا أنّهم عليهم السلام أرجعونا في الحوادث الواقعة إلى رواة الأحاديث، أي من الفقهاء العظام الجامعين للشرائط، وهذا يعني ولاية الفقيه الجامع للشرائط، فهو الحاكم، وسيكون بيده زمام الأُمور وإدارة البلاد، وإجراء حكم الله في الأرض.

(١) النساء: ٥٩.

(٢) المائدة: ٥٥.

فولاية الفقيه إنّما هي رشحة من رشحات ولاية الله ورسوله والأئمة الأطهار عليهم السلام[١].

(١) إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، فهذا آخر ما وجدناه في أُصول الدين من كتاب المرحوم المغفور له حجّة الإسلام، أخي الكريم السيّد عامر العلوي، تغمّده الله وإخوتي ووالدي برحمته الواسعة، وأسكنهم مع محمّد وآله في فسيح جنانه، وإنّه أشار إلى ولاية الفقيه التي هي أساس الدستور الإسلامي في إيران الإسلام، كما هي منطلق الثورة الإسلامية التي انطلقت من إيران أخيراً، وأصل وأساس الجمهورية الإسلامية ... وهذا كلّه قبل إقامة الحكم الإسلامي في إيران، فإنّ دلّ على شيء فإنّه يدلّ على وعيه وطموحه وتنبّؤه بالمستقبل المشرق إن شاء الله تعالى ... وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

العبد

عادل العلوي

الفهرست

مقدّمة
٣ ـ ١٠

ما هي المفاهيم الإسلامية؟ ٣
مفهوم الدين في الإسلام ٦

الكلام في عقائد الإسلام
١١ ـ ٥٦

التوحيد ١٣
العدل ٢٣
النبوّة العامّة والخاصّة ٢٦
الإمامة العامّة والخاصّة ٣٧
المعاد ٥٠

الأخلاق في الإسلام

٥٧ ـ ١١٠

الهجرة للعلم والإيمان ٦٢
الحلم ٦٧
الإخلاص ٦٩
التواضع ٧٣
التكبّر ٧٦
التوبة والاستغفار ٧٨
ملء الفراغ ٨٢
العفو عند المقدرة ٨٤
وملبسهم الاقتصاد ٨٦
نوعيّة التحدّث ٨٨
سوء الظنّ ٩٠
الوحدة الإسلاميّة ٩٣
الاختلاف العقائدي في منطق الإسلام ٩٥
الأعياد في الإسلام ٩٨
إحياء الذكريات الإسلاميّة ١٠٠
فضيلة الجهاد ١٠٢
النصر أو الشهادة ١٠٥
ما هي وظائفنا الدينية ؟ ١٠٧
نظام الحكم والإدارة في الإسلام ١٠٩